محمد العروسي المطوي

التوت المر

الدار العربية للكتاب

الدار العربية للكتاب

الفرع الرئيسي :
4، شارع محيي الدين القليبي
ص. ب : 32 - 2092 المنار 2 - تونس
الهاتف : 888.255 - 887.891
الفاكس : 888.365

المقر الرئيسي :
شارع سوف المحمودي
ص. ب : 3185 طرابلس - ليبيا
الهاتف : 330384 - 4447287
فاكس : 4442870

تلمظ الشيخ مفتاح بقيـة كأس الشّاي، بعـد أن رشف آخر حسـوة فيه، ثم زوّى مـا بين حـاجبيه الأشيبين فتجمّعت كتلـة من تجاعيد جبينـه بالنِّصف من جبهتـه، وأمسك بجَزْدِ الحصير المصنوع من قَش «القدِّيمِ» وخاطب ابنته:

ـ باللّـه عليك يا بنتي أعطني الحجرة الملساء أتوسّـدها لأنام بعض الـوقت... آه يـا مبروكـة! إنَّ المسحاة هـدّت ظهـري، تكاد تقصمـه.. يا ربّ... يـا مفرّج الكـروب... فرّج عنـا الكرب يا رب!

ـ وسِّعْ بالك يـا بـابا... الصّبر مفتـاح الفرج... فلعلّـه قريب ذلك اليوم الـذي تعود فيه إلى الوطن العـزيز، وتلتقي فيه مرّة أخرى بالأهل والأصحاب.»

فتنهّد الشَّيخ مفتاح طويلا قبل أن يقول لها:

ـ آه . . . يـا مبروكـة ! هل بقي الأهل والأصحـاب؟ لقـد تفـرّقنـا . . . تشتّتنـا ، خـرّبـت بيـوتنـا . . . قصفهـا الطّليـان بالمدافع . . . أحرقها بالنّار . . . يـوم الفرج قريب ! . أين قوّتُهُ يا بنتي؟ إنّ هـذا الجبّار يـزداد قوة كلّ يـوم . . . لقد اكتسح دولـة الأحبـاش على مـرأى ومسمع من العـالم . . . فكيف بنـا نحن الضّعفـاء المشرّدون؟ . . . لا أدري ـ يـا بنتي ـ هل من حسن حظك أو من شـؤمـه أنك لا تنتسبين إلى مسقط رأس . . لقـد ولدتك أمُّك ، ونحن نمشي في الطّـريق ، هائمين ، حيارى ، لا ندري إلى أين ! . .

فتنهّدت مبروكة بدورها وقالت له :

ـ خفّـف عنك بالله يا بـابا . . . كم أتمنّى ألاّ تعـود إلى ذلك الماضي الأسود المقيت .

ـ أعطيني الحجرة الملساء يـا بنتي . . . إنّني أشعر بأن رأسي أصبح أثقل منهـا . . . آه بسرعــة ، بسرعة . . . يـا مبروكـة ! . الحمار أفلت من ربـاطـه . . . بـدأ يعبث بـ « طرائد » الفلفل . . . هتك الله ستره من حمار . . . لوجاء سي صـالح إلى « السانية » ورأى عبث الحمار بالفلفل لاتّهمنا بالإهمال وقلّة الإخلاص .

. . . أسرعي يا طفلة . . . إنّه حمار خبيث . . »

ونهضت مبروكة تعدو مسرعة لتعيد الحمار إلى مربطه .

«... يـالـه من حمار عنيف!... لايفيـد معـه إلاّ الحديد... حتّى حبال اللّيف يأكلها بشراهة ونهم كأنّه جوعان منـذ أيـام... قناطير مقنطـرة يبتلعهـا دون انقطـاع... دائما جـوعـان... أكـول... لم يُبقِ على شيء: قرط، فصفصة، شعير، حَبًّا كـان أو نباتا... وسي صـالح يُعزُّ هـذا الحمار كأحد أولاده... إنّـه الحمارالمدلّـلُ بين أحمرة القـريـة... كـلّ النـاس تتحـدّث عنـه... تـروي عنـه الحكايـات والنّـوادر. لـو كـان للحمير مملكة لنصّبته ملكا عليها... وماذا ينقصه؟... لجام مفضّض عـريض... رسن مـن أرفع الجلـود مُطـرّز بـالحريـر الفـاخر... بردعة يشتهي الجلـوس عليها الوجهاء والاعيان... أكْل مـوفور زمن القحط وزمن الـرّخاء... وسي صالـح يطعمه بيده، ينقّي له الشّعير... وماذا بعد كلّ هذا...»؟

وكفّت مبروكـة عن الحديث، وهي تربت على ظهـر الحمار: وتقـــول: «... مهما يكن فإنّــه غير مســؤول... حيــوان أبكم... غير مسؤول... أرزاق تُساق...»

وعادت إلى والدها كي تساعده وتناوله الوسادة! يتوسّدها في الظّهيرة قبل أن يستأنف عملـه في بستـان سي صـالح... لكن مبروكة وجدت أباها يغطّ في نـوم عميق، فوقفت بجانبه تصغي إلى شخيره المتزايد... وتـرددت في أمـرها: هل تـوقظـه من نومه

ليـزول هذا الشَّخير، أو تتركـه ينعم براحـة النَّوم، وهـو أشدّ مـا يكون حاجة إليهـا؟ ولعنت الحمار الخبيث الذي لم يمهلها حتَّى تقـدّم «الوسـادة» إلى أبيهـا، لينـال حظَّه من النَّوْمِ ؛ لقـد بلغ الإعياء بهذا الـوالد المكدود حدّه الأقصى، فـاستسلم بسرعة إلى النَّوْمِ العميـق. . . وهـذا الشَّخير المزعج! وهمّت بإيقـاظـه، لكنَّهـا تـراجعت للمـرّة الثَّـانيـة. إنَّها تشفق عليـه إلى حـدّ الإفـراط. . . كانت تتمنَّـى لو أنَّ لها سـواعـد الفتيان، وجَلَـدَ الشبّان. . . إذن لأراحته من التَّعب والشَّقاء.

وأخـذت تتأمّل الجسـد الممـدّد على جـرد الحصير، فـراعهـا منظرفمـه النصف مفتوح، قـد ظهرت أنيابـه الصّفراء وأسنـانه التّي اخضرّت منـابتها كأنَّما زرعت جـوانبها بـالطُّحلب. وحلَّق خيالها في تساؤل:

«. . . ترى كم ابتلـع فم أبي من الطَّعام؟ . . . ستـون سنة أو أكثـر، وهـو يأكل ويـزدرد. . . «بازيـن» مصراطة، «غـربـوز» مطماطة، «ملثـوث» الحامّة، «شدّاخ» غنُوش. . . والنّهـاية! لا شيء. . . مـوت وفنـاء. . . دود وتـراب. . . سيمـوت أبي كما مـاتت أمّي من قبل في الثّـلاثين من عمرهـا، وكما مـات أمس الحاج محمـــود بن يحيى. . . مـــاذا أفـادتـــه الموائد والمآدب؟ . . خـرفـان مسلـوقـة ومشـويّـة. . . قصـاع

ومثارد. . . مئات الجرار من السّمن تراق فوق قصاع الكسكسي والعصيدة. . . الكلّ سواء . . . النّهاية واحدة. . . واحدة للكلّ : لمن كان يحرث القفيز من الشّعير، أو لمن يلتقط حصالة الشّعير، أو يشملل الشّيص وحشف التّمر؟ . . . ترى لو كان أبي يؤمن بهذا؟ . . . هل كان يعيش في كآبته وحزنه هذه السّنين القاسية الأليمة؟ . . . لكن من أجل أختي عائشة المسكينة. . . عائشة التي لا تمشي على قدميها كما يمشي النّاس، إنّها تحبو على ركبتيها ويديها كأنّها ما تزال رضيعا في سنته الأولى. . »

وشخر الشّيخ شخرة قويّة فانزعجت مبروكة. خرجت بها الشّخرة المرعبة من حديث الموت والفم إلى ما يجب عليها أن تقوم به من واجب نحو هذا الحمار المدلّل. لقد تذكّرت ما تقوم به من واجب نحو هذا الحمار المدلّل. لقد تذكّرت أنّ عليها أن تقدّم للحمار غذاءه، مخلاة مملوءة بالشّعير تعلّقها برأسه كلّما تتوسّط الشّمس كبد السّماء ويبدأ ظلّ النّخيل يمتدّ نحو المشرق.

ويراها الحمار مقبلة عليه بمخلاة الشّعير فيمدّ أذنيه ويحرّك رأسه ويرفع بمنخريه كأنّه يستنشق رائحة الشّعير من بعيد، ثم يطأطىء برأسه عندما تقترب منه ليعينها على تعليق المخلاة.

«. . . إنّه حمار ذكيّ رغم ما يوصف به الحمار من بلادة. وأيّة بلادة في الحمار. . . وما هو ذنبه حتّى يصبح سُبّة عند النّاس وعلى مرّ الدّهور! ألكونه صبورا على احتمال عنت الإنسان؟ . . . ألكونه خدوما ذلولا لا يعرف الكلل والملل، يعيش على الشّظف، ويقاوم الحرمان والبؤس؟ هل للحصان المحظوظ من الذّكاء ما يفوق الحمار إلى مثل هذه الدّرجة من التفاضل؟ . . . صحيح أنّ الحصان أكثر جمالا وأحسن منظرا، وأصلح للعدو والكرّ، والتّفاخر والتّباهي. لكنّه ـ مهما يكن ـ لا يسدُّ وحده حاجة الإنسان، فللحمار عمله الكبير. ونصيبه الوافر. . .»

وزمّت مبروكة بأنفها. ثمّ علّقت المخلاة برأس الحمار، ورجعت إلى جانب الكوخ لتكنس السّاحة الصغيرة التي أمامه.

السّاحة الصّغيرة هي مستراحهم ومجلسهم بالنّهار. . . لقد تكرّم عليهم سي صالح بجذوع نخل أحاطوا بها السّاحة، وجعلوا منها مصاطب تقيهم برد الأرض في الشّتاء، ويتخذون منها مقاعد في الفصول الأخرى.

تذكّرت مبروكة فصل الشّتاء فارتعش بدنها كلّهُ، وقفّ شعرها. الشّتاء! الفصل الملعون عندها، عند أختها عائشة، عندهم كلّهم. . . إنّه برد الشّتاء القارص، لقد أكل من

أقــدامهـم وأصـــابعهم. كـــانت أعقـــاب أرجلهم مفلّحـــة . . . مشقّقـــة . . . تمتلىء شقـــوقهـــا كـلّ يـــوم بـالتّراب . . . لكنّـه يترك رواسبه في تلك الشّقـوق حتّى تنسدّ، وتبقى لها في أغلب الأحيان آثار سوداء شوهاء .

في الشّتـاء! تكون أصـابع الأرجل ضحيّة «الشّرى» الكريـه . برودة الأرض تنتقل إلى تلك الأرجل الحافية البائسة فتستقرّ فيها . وفي الليل مـا إن تشعـر الأصـابع بشيء من الـدفء حتى تلتهب حـرارةً كأنّها لسْعُ الجمر، فتحـس الأختان بألم كبير لا يخفّف منـه إلاّ إراقة الماء البارد على تلك الأرجل فلا تشعر بالدفء .

أنهت مبروكة كنس السّـاحة بعـذق عرجـون قديم، وجمعت الكناسة في بقيّـة قُفّة متهرئة، وذهبت لتلقي بها قريبـا من مربط الحمار. ثم عادت أدراجهـا . مغرقة في التفكير، مطأطئـة الرأس كأنّها تبحث عـن شيء ثمين سقط لها في التُّراب . وسمعت أذان صلاة العصر يجيء منبعثا من المئذنة الـوحيدة في القرية فذهبت إلى أبيهـا توقظـه من نومـه ليؤدّي صـلاته، ويستأنف عملـه في عـزق الأرض، أو تنقية البقـول من النباتـات الطفيلية: لاقّـة، سعـد، نجم، وغيرهـا من الطفيليـات التي لا تعـرف الفنـاء والعدم؛ فما تغيب عنهـا محشّةُ الشيخ مفتـاح الثلاثـةَ أو الاربعة أيّام حتّى تعودَ إلى الظهور من جديد كأنّها في صراع مستمر . . .

استيقظ الشيخ مفتاح إثر نداء ابنته، فنهض إلى جرّة الماء يتوضأ منها. ثم انتحى ركنا من السّاحة الصغيرة اتّخذه مصلّى له يتعبّد فيه عندما تدركه الصّلاة في غير أوقات العمل. أمّا مبروكة فقد بادرت إلى الكانون تجهّز كأس الشاي الأسود. لقد عوّدت والدها الشيخ أنّه بمجرّد ما يطلق السّلام من صلاته تكون هي بجانبه لتقدّم له كأسا مركزة من الشّاي كأنّه القطران لكثافته وسواده.

الشيخ مفتاح لا يصحو تمام الصّحو من نومه، ولا يستعيد قواه الذهنية والجسمية إلاّ بعد أن يتناول تلك الكأس الثقيلة الكثيفة فتتفتّحُ عيناه ويشعر بالنشاط يدبّ في أعضائه. إنّها عادة تمكنت منه منذ عشرات السّنين، ولم يستطع التّغلُّب عليها.

كان دائما يحاول الإقلاع عنها. وكانت العِبر والأحداث تتوالى أمامه وتغريه بالكفّ عن هذا المشروب. كان أحيانا لا يفكّر في شراء الخبز له ولبناته قبل أن يفكّر في شراء الشّاي. وكان لا يحتار إذا بات على الطوى. لكن لا يغمض له جفن إذا لم ينل كأسه المعتادة من الشّاي. وكان لا ينهض إلى عملِه خفيفا نشيطا إذا كان ينقُصه مقدار ـ ولو كان ضئيلا ـ مما اعتاد شربه قبل العمل. ورغم هذا كلّه فقد كان الشيخ راضيا عن محنته تلك. كان يحمد اللّه على أنّها لم تكن بليّة أشدّ. ولم تكن محنة خمر أو «تكروري» أو سقاير.

وتقـدّمت مبروكـة بالكأس إلى والـدهـا ، فأمسك بها الشيخ ونظـر إليها بـانشراح . وبدأ يترشّفهـا جـرعة بعـد جرعـة في تأنٍّ وتلذّذ ، ثم رفع الكأس ونظر إلى البقيّـة فيها كأنّه يبحث عن سرّ مـا يبعثه هـذا السّائل من نشـاط في الجسم وانشراح في النفس . وأعاد الكأس إلى وضعها الاوّل في يده وقال لمبروكة :

ـ تفتّحت عيوني ، فتح الله عليك . إنّه لـذيذ ، يا مبروكة . أنا أشهد لك بالبراعة والحذق .

وقطّب جبينـه بسرعـة ، وخـاطبهــا بلهجـة فيهـا الصرامـة والحزم :

ـ أختك عائشة لم تأت حتى الآن ! لماذا تأخّرت . . ؟

- عند صديقتها فاطمة . لقد استشارتك في ذلك . . .

فاطمة ملحاحة جدّا فلن تتركها تعود قبل أن تتغدّى معها .

ـ هـداكُنّ اللّـه ، يا بنات . أختـك عائشـة صغيرة ، قاصرة ، عاجزة ، تمشي على ركبتيها . لماذا تتركينها تكثر من الخروج وتبعد عن المنزل ؟

ـ صحيح ، يابـابا . لكن باللّه مَن عندنا هنـا ؟ نحن غرباء في هـذا البلد ! لا أمّ ولا أخت ، لا عمّـة ولا خالـة . إذا حبسناهـا

حتى عن فاطمة أخشى أن تضجر أكثر وتسودّ أمامها الحياة.

ـ أنا معك في هذا، يا بنتي، لكنّي أخشى أصحاب الشرّ وأولاد الحرام.

ـ لماذا هذا التّشاؤم، يا بابا؟ أهل البلدة طيّبون. لم نر منهم إلا الخير. كانوا دائما معنا يساعدوننا ويكرموننا. الحقّ أنّنا منذ قدمنا إلى هنا لم نر ما يدعو إلى الريبة والخوف.

ـ اسمعي، يا بنتي. قال الأولون «... قرّان ولا متزلبح..» كلامك كلُّه صحيح.. لكن أصحاب السوء لا يخلو منهم كونٌ. وقديما قالوا «ساعة القضاء لها غفلة»... ومن يدري؟ على كلّ حال أنا غير مرتاح لهذه الزيارات الكثيرة. فلتخفّف منها بعض الشيء. فهمت يا بنتي.

ونهض الشّيخ مفتاح فأخذ المسحاة والمكتل ليستأنف عمله بعد أن أوصى مبروكة بألاّ تنسى كأس الشاي الثانية.

مبروكة منهمكة في ترتيب الكوخ وتنظيمه... لم تجد متّسعا من الوقت منذ الصّباح... إنّها مشغولة كامل اليوم... هي ربّة البيت تساعد أباها في شؤون البستان، وتشرف على أختها عائشة، وتقوم بكلّ ما يتعسّر عليها فعله... ورغم ذلك كلّه لم يكن أبوها ليّنا معها هذا اليوم... كانت كلماته قاسية عليها،

فبقيت محتارة الفكر، مضطربة البال من كلماته وخوفه على عائشة من أصحاب السوء. إنّها لم تكن تتوجّس خيفة من ذهاب عائشة وحدها كما أصبحت تتوجّس الآن بعد أن حدّثها أبوها... كانت كلماته شواظا من نار وحرابا مسنونة وخزتها بحدّة وعنف. إنّها تعتبر نفسها المسؤولة الاولى عن أختها. فهي لها بمثابة الأمّ والجدّة والأخت... كفى والدها مسؤوليّة وعبء هذا العمل الشّاق، الممل المتواصل كامل السّنة ليكسب لهما القوت ولباس الستر... وليته كان كسبا فيه شيء من الوفر أو الادخار! إذن لأمكن لأبيها أن ينعم بالراحة أسبوعا في السنة على الأقل.

ولكن! من أين له الراحة والتوفير؟... الراحة والتوفير لغير الفقراء! إنّه لأولائك الآخرين... إنّه يبدو غير عدل، هذا يكدّ كامل يومه يتحمل النصب البالغ، وتنهدّ أعصابه ويتصبّب جبينه. وماذا يكون جزاؤه؟ لقمة تسدّ الرمق، وخرقة تستر الجسم، بينما المحظوظ تتهافت عليه الدّنيا، ويتكالب عليه الرزق.

السيّد «عبد الصّمد» بليد أبلد. لكنّه يعيش في الريش والحشايا!.. ينعم برغد العيش وبذخ الحياة. وفوق ذلك فهو يحسب أمثالنا من المعذّبين في الأرض خدمًا له يسومهم سوء

العـذاب بما يكلّفهم من عمل شـاق ليمتنّ عليهم بـأبخس الأجـور. . كـان يتفـاخر دائما ويعيـد على الأسماع: أنّـه لـولاه لعفنت أفواهـم من الجوع، وتعرّت أجسامهـم من اللّباس. . . فهل من الحقّ ما يقـوله «السيّـد» عبد الصمد؟! ومن هـو بدون أولائك الكـادحين المعذّبين؟. . . إنّـه - كما يقـولون - لو تـرك وشأنـه لما نـال كِسْرةَ شعيرٍ أو قتـة جرجير. . . لكنّهـا الحظـوظ والقسمة في الأرزاق».

كانـت هذه الخواطـر المتشائمة تـدور برأس مبروكـة وتنهش تفكيرهـا. خـواطـر بعضهـا واضح كلّ الـوضـوح، وبعضهـا غـامض يشبـه الـرّمـز لكنّـه لايقلّ مفعـولا في نفسهـا عن بقيّـة الخواطر الأخرى.

وأوشكت على الانتهاء من تنظيف المطبـخ وكنسه، فأحسّت بشيء من الفتـور والإعيـاء. ثم لم تلبث أن عاد إليهـا النشـاط، نشـاط خـواطـرهـا واضطـرابها، فـاتكأت على خشبـة المطبخ وسبحت من جديد:

«. . . صحيح ما قاله أبي. إنّـه جرّب الحياة، واختبر الأيّام. لقد مارس النّـاس وخالط المجتمعات من هنالـك في وطننا ليبيا إلى هنا في وطن تونس الخضراء.

سي محمود أبطره المال وغرّته كثرته فشمخ بأنفه وتنكّر لأصله. آه مسكينة سيئة الحظّ.. الخالة زينة مغبونة حقا! ما ذنبها؟ لماذا طلّقها وألقى بها في الشَّقاء؟ تزوّج ابنة عمّه طمعا في مال أبيها العجوز... واستعمل «ناكر الجميل» كلّ ما عنده من مكر ودهاء حتى أغرى والدها على أن يوصي إليها بكلّ ماله. وأيّ شيء سيمنع الشَّيخ المغرور من الاستجابة؟ ألم يصبح مطمئنا على ابنته؟ إنَّه لا يخشى عليها غائلة الدهر ومكر الزمان... أمَّا الخبيث فكان له قصد آخر؛ فما إن توفي هذا العجوز حتَّى تنكّر الزوج المخادع لكلّ مكرمة، ولفظ المسكينة لفظ النواة... لقد امتصّ دمها ونضارتها. ثم طلّقها ونبذها... ولمن تشكو؟ فهل بقي بعد هذا أمان؟... هل بقيت ثقة؟ لقد صدقت، يابابا. إنَّك على جانب كبير من الحكمة.

عائشة لم تأت إلى الآن! ذهبت منذ الصَّباح! فما بالها لم تعد حتى هذه السَّاعة!؟ لقد تغدّت معها ولا شك... نالت وجبة دسمة من الطَّعام اللَّذيذ... الحقّ أنّ أمّ فاطمة امرأة كريمة، رحيمة، كثيرا ما أبدت لنا العطف والحنان... ورغم هذا فما من حق عائشة أن تتأخر إلى هذا الوقت... مضت صلاة العصر ولم تأت! ماذا أقول لأبيها عندما أحمل له كأس الشَّاي؟ إنَّه سيزيد من خوفي ووساوسي... ستزداد مصيبتي ولاشكّ!.. يا ربِّ...»

وتنهّدت طـويـلا . ثم ذهبت تهيء كأس الشـــاي قبل أن تنهمك في تجهيز العشـاء وطبخه . إنها اليوم تستعـدّ لهذا العشاء استعدادا خـاصا ؛ لقـد توقع أبـوها أن يزورهـم في المساء ضيف عزيـز، «علي بن مسعود»، ضيف تحبُّـه الأسرة، وتكنّ له أعظم الـودّ، فهـو صـديق قـديم للشيخ مفتـاح، اشتغل معـه عـدّة سنوات في بساتين ومزارع شيخ قرية «غنُّوش».

وعادت بمبروكـة الذكريات الحلـوة إلى قرية غنُّوش، القـريـة الـرّابضة بخليـج قابس . وإذا بها في القـريـة تغشى مظـاهرهـا فتشملُها قشعـريرة حـادّة لذيـذة . ولاتضيق سمات وجهها على استيعاب كلّ الانفعـالات فتعكسها صـورا واضحة، وتـرسمها لوحات معبّرة وملامح ناطقة.

حملت مبروكة كأس الشاي وذهبت به إلى والدها ؛ فقد أتمّ الشيخ مفتاح صلاة العصر وبقي متربّعـا في مكـانه يتلـو وِرْدَهُ المعتـاد بعـد كل صـلاة. وقبـل أن تصل لمحت مبروكـة أختهـا عائشـة تدخل البستان فتنفّست الصّعـداء، وشعرت بشيء من الاطمئنان ... سـوف لا يحرجُها أبوهـا هذه المرّة عنـدما يسألُها: هل عادت عائشة؟

عنـدمـا أصبحتْ على قيـد خطـوتين منـه أبصرت خنصره وبنصره معقـودتين، فعرفت أنّـه لم يتمّم وِرْدَه بعدُ. لهذا بـادرت بـوضع الكأس بجانب ركبتـه اليمنى، وانسحبت متراجعـة إلى الوراء. واكتفى الشيخ بالخزر إليهـا، مستمرّا في تلاوة ورده دون أن يشير إليها بشيء.

وانطلقت مسرعـة نحـو الكـوخ فـوجـدت أختهـا جـالسـة تنتظرها، ضـاحكة، مستبشرة، على عكس ما كـان يبدو عليها

هي من تجهُّم وانقباض. وَدُهِشَتْ عائشة عندما صاحت في وجهها:

- لماذا تأخَّرت؟

- ألحَّتْ علي فاطمة بالبقاء.

- إن والدك غضبان.

- وماذا صنعت؟ ليست هذه أوّل مرّة أزور فيها فاطمة.

- لن تذهبي في المستقبل.

- هل ارتكبت ذنبا؟

- لا أدري

- طيِّب. سامحوني هذه المرّة. ولكن...

- اسكتي

- سأذكر الأمر لوالدي. فإذا أصرّ على ذلك فالأمر بيده...

- ...

- أعطتني أمّ فاطمة جناح دجاجة. كان الغداء مقرونة بالصالصة والدّجاج. أوه ما أحلاه!...

- من أجل هذا تبتسمين إذن!...

- لا والله يا أختي.

- مما إذن؟

- قصة طريفة سمعتها من فاطمة... يظهر أنك غاضبة الآن، سأقصها فيما بعد... سأحكيها بعد أن يستريح بابا من العمل ونتعشى... هل يكون دائما هو الذي يُقَصِّر لنا الليل... انا سأقصر اللّيل هذه المرّة.

اغتاظت مبروكة من موقف عائشة التي كانت تتحدّاها. أو هكذا خُيِّل إليها. وتساءلت في نفسها عمّا ستقصه عائشة باللّيل؛ فانتابتها الوساوس والحيرة. وألحّ عليها الفضول بأن تسأل عائشة عن هذه القصّة، فلعلّها تكون طريفة. أو لعلّها تكون غير لائقة فتدعو والدها إلى مزيد من التّشكّك والرّيبة. واستبدّ بها الفضول حتّى جاءت تلاطف عائشة وتستأنسها لتذكر لها ما سمعته من فاطمة، وقالت لها:

- إن الوالد سيكون مشغولا الليلة بالضيف وليس من المألوف أن تتكلّمي أمام رجل غريب.

لم تفهم عائشة سرّ إلحاح أختها، فقالت لها بكل بساطة:

- مبروكة! ما هو «التكروري»؟

كان سؤال عائشة صاعقة نزلت على مبروكة.

التكــروري!؟ مــا لعــائشــة والتكــروري؟ ... من أين عرفته؟ ... هل هو مـوضوع القصّة؟ إذن يجب أن تعرف القصّة؛ فكتمت غيظهـا وضبطت أعصابها وربّتت على كتف شقيقتهـا وهي تقول:

ـ التكـروري حشيشـة يـدخّنُهـا بعض النّـاس مثل النَّفَّـة والسّيقارو... هل عندك قصّة عن التكروري؟

ـ نعم

ـ طيّب... ما هي القصّة؟

ـ حكت لي فاطمـة أن أخاهـا عبد الله دخن التكـروري مع بعض أصـدقـائه. وعنـدمـا عاد إلى المنزل كـان يشعـر بجـوع شديـد، فذهب الى المطبخ في الظّـلام فوجـد طاجينـا مغطّى به لحم؛ فأكل اللّحم كلّه. والغـريب أنّ اللّحم كان نيّئا فـالتهمه دون أن يشعـر. وفي الصباح لما تفقّـدت أمّـه الطّـاجين وجدتـه فارغا فجُنّ جنُـونها وحسبت أن بعض القطط أو الكلاب تسلّل إلى المطبخ وأكل اللّحم. وعـادت أمّ فاطمـة من المطبخ مولـولة صاخبة متّهمة فاطمة بأنّها تـركت باب المطبخ مفتوحا البارحة. وتعـالى الصياح والضّجيج بين فـاطمـة وأمّهـا. وكان عبـد الله معها في هذا الضّجيـج... كان معها في أحـلامه المضطـربة.. فتكلّم، وهو نـائم قائلا: أمّي! أمّي! لماذا كـان اللّحم نيّئا: آه

أتعبني أكلـه... كادت أسنـاني تنخلع، واللّـه. فصاحت أمـه مذهولة:

«عبد الله!.. عبد الله!.. هل أنت الذي أكل اللَّحم؟.. يا شؤمي، يا ولدي... إنّه نيّء!.. ماذا أصابك؟»

وترقّبت الأمّ جواب عبد الله. لكنّ عبدالله بقي صامتا لا يتكلّم.

كان نائما يغطّ غطيطا. فأقبلت عليه تهزّه هزّا، وتوقظه بشدّة وعنف. وبعد لأي استيقظ عبد الله فزِعا وسحب الغطاء عن وجهه فبدا مصفرًّا منتفخا. وجهر عينيه الضياء فلم يستطع فتحهما.

لقد قالت لي أخته فاطمة: إنّه كان أشبه بمخمور لم ينل حظّه من النّوْم، وإنّهُ ما يزال مسطولا. لكنّ أمّه المسكينة ارتاعت لحاله وأشفقت عليه، فاعتقدت أنّهُ مريض؛ وأنّهُ كان يهذي من شدّة الحمّى، فهرولت إلى منزل جارتها علّها تجد عندها قرصا من «الاسبرين» أو حبّة من «الكينة» لتخفف عنه بعض ما يعانيه.

وابتدأ عبد الله يستعيد ذاكرته شيئا فشيئا، وبهره ضوء الشمس وطلوع النّهار فعرف أنّه تخلّف عن عمله فاهتزّ، وارتعدت فرائصه. وعاد إلى وعيه الكامل. ماذا سيقدّم إلى أمّه

من أعـذار؟ بماذا سيجيبهـا إذا ألحّت عليـه في معـرفـة سرّ أكل اللّحم النيء. وبحـركة عصبيّـة ألقى بالغِطـاء عنه. واستـوى قـائما. ثمّ فَرَكَ عينيـه وتمطّط بنصفه الأعلى فسمعت طقطقـات ظهره. وقال لفاطمة:

ـ لماذا لم توقظني أمّي؟

ـ أيقظتك منـذ الصَّبـاح البـاكـر. لكنك ادّعيت المرض فأشفقت عليك.

ـ أين هي الآن.

ـ ذهبت تبحث عن «أسبرين».

ـ وبابا! ماذا قال؟

ـ لم يعلم حتّى الآن.

ـ اسمعِي... ناوليني الصّابون بسرعة.

ـ الصّابون والمنشفة في الـمـطهرة

ـ إذا جـاءت أمُّك قبل أن أخـرج من المطهـرة قـولي لها إنني أصبحت بخير. ولست في حـاجـة إلى الأسبرين، لأن الصّـداع زال... سمعت، يا فاطمة. أنت مخلصة دائما.

ـ لكن كيف تذهب لعملك الآن! هل يقبل «عَرْفك»؟

ـ سأحاول ... إنّه رجل طيّب ... الحلوة الشامية والعروسة تكونان عندك غدا.

ـ والمشط؟!

ـ والمشط كذلك ... يا فطّومة العزيزة. اتّفقنا. أليس كذلك؟

ـ على شرط أن أعلم بقصّة اللّحم.

ـ أيّ لحم، يا سخطة.

ـ اللّحم الذي أكلته من الطّاجين، وهو نيّء.

ـ الله يهدي الجماعة ... أولاد الحرام! ... خميس، صالح، مختار. كلهم خبثاء أغروني بتدخين التكروري.

فجحظت عينا فاطمة وصاحت:

ـ التكروري!!! ماذا صادك؟.. آه لو تسمع أمّي! ستموت كمدا وحسرة. أنسيت أنّ خالي مات بسبب التكروري ... مات بالسّل!؟.

وانتبه إلى أنّه ارتكبَ هفوة كبيرة بهذا التصريح، فحاول أن يغالط أخته. إلاّ أنّهُ فضّل أن يصارحها ويتوعّدها في آن واحد؛ فقال لها:

ـ غلطت، يا فاطمة. لكن تذكّري أنّني أنذرتك. إنّك تعرفين شدّة بأسي... أقسم باللّه لو تسمع أمّي الخبر لقضقضت عظامك.

ارتعدت فرائِصُ فاطمة واقشعرّ بدنُها، وهي تسمع أخاها يهدّدها. إنّها تعرف شدة بأسه وقساوته عندما يغضب عليها؛ فوعدته بالكتمان وإخفاء الحقيقة.

وما إن أطبق عبد الله وراءه باب المنزل حتّى جاءت أمّه تحُثّ خطاها، ممسكة بقرص الأسبرين بن سبّابتها وإبهامها، وهي ترمرم بكلمات مهموسة غير مفهومة. فلمّا أخبرتها فاطمة بذهاب عبد الله إلى عمله سُرّيَ عنها واستبشرت..»

وسكتت عائشة لحظة. ثم مضت تقول:

ـ لقد قصّت علي فاطمة كلّ ذلك لمّا كنت عندها اليوم. إنّها تعرف نوادر وحكايات غريبة عن التكروري. هل تصدّقين يا مبروكة، أنّ التكروري يجعل صاحبه يسبح في عالم فسيح من الخيال والصّور البديعة الخلاّبة؟ لقد قالت فاطمة: إنّه يخرج بصاحبه عن واقعه، ويحلّق به في أجواء عزيزة غالية. إن فاطمة تؤكد هذا. ومن يدري لعلّها صادقة فيما تقوله، فخالها كان يتعاطاه...»

وعندما انتهت عائشة من كلامها قالت لها مبروكة:

ـ اسمعي، يا أختي. إيّاكِ أن تقصّي هـذا الخبر على أبيك. فإنّه سيغضب كثيرا وسيمنعك من الذّهاب مرّة أخرى إلى منزل فاطمة. إن فاطمة لا تكاد تنقطع عن المجيء إلى البستان فلتكتفي باللّعب معها هنا.

ـ لكن لم أفهم السّبب!

ـ ألم تقولي: إنّ عبد الله دخّن التّكروري. وماذا يُرْجَى من هذا الولد بعد ذلك. يا خسارة شبابه الغض! إنّي كنت معجبة به كثيرا. أما الآن!.. فلا.

ـ وما هو ذنبي أنا؟

ـ لقد دخل الفساد إلى هذه الأسْرَة.

ـ أليسوا كرماء معنا؟

ـ صحيح ... لكن هذا الولد! عبد الله.

ـ هل هو غير صالح؟

ـ وهل تشكّين؟ شاب مثله ينزلق إلى هذه الهوّة. أنا لا أريد سماع هذا الخبر مرّة ثانية.

وانصرفت مبروكة غاضبة محتدمة إلى الخُصّ الصّغير الذي اتّخذتْ منهُ الاسرةُ مطبخا، بينما بقيت عائشة مشدوهة محتارة من مسلك أختها معها. وتساءلت عائشة عن سبب غضب

أختها. وأبى عقلها الصغير إلاّ أن يحصر ذلك في غَـيْـرَةِ أختها منها؛ فندمت على ما ذكرته لها مـن أكل جناح دجاجة والمقرونة بـالصالصـة. هي تعـرف أن غذاءهـم لن يكون في ذلك اليوم سوى جزر وبصل مسلـوقين في الماء مع حبّات قليلة من دشيش الشّعير.

«... أنا غلطت: ما كان من حقّي أن أحدِّثها عمّا أكلته بدار فـاطمـة ... شراهـة! . . بخل! . . لماذا لم أحتفظ لها بجـزء من ذلك الجناح. إنّها كـانت تُسرّ بذلك ... يـا لطيف! لقد نسيت أختي عنـدمـا حلَّقت حـول قصعـة المقـرونـة مع فـاطمـة وأمّها. . إنّها مقرونـة تفوح بالأفاويه والأبازيـر... سالت لعابتي بمجرد ما رأيت بخارها الفواح فوق القصعة يتلاشى شيئا فشيئا وسط فضاء الغرفة ...»

وعـادت بها الهواجس إلى التكـروري وما قيل عنـه، إلى هـذا الجوّ الذي يحدثه.

«... قـــالـــوا عنـــه: إنَّـــهُ يُنْسِي صـــاحبـــه الـواقع ... الواقع! ... واقعـي! ... هل أنساه لحظـة؟ ... أيمكن أن أعيش الواقع الآخـر... أمشي على رجلي كما يمشي النّاس ... أن تنتصب قـامتي فـارعـة جميلـة كقـامـة فـاطمـة ... محبوبة ... مريم ... كقامة أترابي من بنات القرية ...»

كـانت تتمنّى أن يتحقّـق لها ذلك، ولـو في عـالم الـوهم والخيال. فهل إذا قُدِّر لها أن تتعـاطى «التكروري» ستعيش ولو لحظة قصيرة في هذا العالم من الخيال؟!

واستبـدّت بها فكـرة التّجـربـة. لماذا لا تجرّب التكـروري؟! لكن قشعـريـرة رعت كـامل جسمهـا... لقد تـذكّـرت كلمات أختهـا مبروكـة. إنّها تحترمهـا وتقـدّر مـا تبـذلُـه من إخـلاص وتضحية في سبيلها؛ فـاستعاذت من هذه الـوساوس خشية أن يطغى عليها ذلك الشُّعور.

وفضّلت الـذّهـاب الى المطبخ لتســاعـد أختهـا على طعـام الضيف. ستقصّ الخضر وتحمش النّار تحت القدر على الأقل.

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

كان بستان سي صالح مجاورا لبستـان الحاج علي والد فاطمة وعبد اللـه. ومنذ أن ابتدأ الشيخ مفتاح «خمّاسـا» في بستان سي صـالح ابتـدأت الصّلـة تتكوّن ثم تتـوثّق بينه وبين الحاج علي وأسرته.

الحاج علي كان يتولّى بستانه بنفسه ويقوم بجميع شؤونه يعزق الأرض، يجرّ السماد ويخلطـه، يسقي ويبـذر، ينقّي الطفيليات ويـزيلهـا، يمحّش عن الخضر والبقـول. وفي الرّبيع يـؤبّـر نخيله، وفي مقتبل الخريف يجرد خوصـه وسعفه ويقطع أعذاقه ويجمع تموره. شيء واحد كان يتعذّر على الحاج علي القيام به في بعض الأحيـان، هـو سقي البستـان بـالليل عنـدمـا يأتي دور السقي ليـلا، فكـان يستأجـر أحدَ العمّال ليقـوم لـه بـذلك أو يعوّض دوره الليلي بمن يتكرّم عليه من الأجوار بدوره النّهاري. فلمّا قدم الشيخ مفتاح إلى القريـة اطمأنّ إليـه الحاج علي وكلّفه بمهمّة سقي البستان كلّما كـان الـدّورليليـاً.

علّة الحاج علي أنّه كان أعشى ؛ كان لا يبصر باللّيل إلاّ على ضوء قوي أو نور ساطع. وزاد من إكبار الحاج علي للشيخ مفتاح أنّه لا يطلب في مقابل عمله أجرا... كان يرى ذلك واجبا يقدّمُهُ كجار وكصديق للحاج علي. وبمرور الأيّام توطّدت الصّلة بين الأسرتين رغم التّفاوت الاجتماعي بينهما...

الحاج علي يُعَدّ من وجهاء القرية وخيرة رجالها ... أمّا الشيخ مفتاح فمهاجر ليبي غريب، فقير الحال، لايكسب قوت يومه إلاّ بكدّ ذلك اليوم كُلّه ... الحاج علي مقيم في وطنه بين أهله وعشيرته يملك ضيعة فيها النّخيل والشّجر المثمر، يبذر الحَبّ ويحصد القمح والشّعير، يدّخر من القوت والمال ما يدفع به العوز وقت الحاجة أو عندما تشتدّ غوائل الدهر وعوادي الزّمان، أمّا الشيخ مفتاح فأرمل مُسنّ، فقد زوجته، وهي ما تزال في شرخ الشّباب، تاركة له طفلتين صغيرتين فعاش حياته أرمل محروما، مهموما، أبى أن يدخل إلى أسرته زوجة الأب حتّى لا تذوق ابنتاه المقت، ولا تشعران بالحرمان القاتل.

وعائشة! عائشة ابنته الصغرى! إنّها العبء الأثقل، أصيبت بالشّلل، وهي في المهد؛ ما استطاعت الوقوف على رجليها إلى الآن كأنّها ما تزال في السنة الأولى من عمرها. أمّا الحاج علي فله زوجة صالحة مطواعة، رؤوم؛ وأبناء صحاح

البنيـة خفاف الحركـة يبعثون في النفس قـوّة الأمل ويزيـدون من بهجة الحياة وزينتها.

كل هـذا التّفـاوت لم يُبـاعـد بين الأسرتين ولم يمنعهما من الانسجام، والتّجاوب، وربط الصّلات المتينة بينهما.

لقـد عـاشر الشيخ مفتـاح كثيرا من العـائلات. . واختلط بكثير من النّـاس. وكان تطـوافُهُ السنـوات العديـدة في جهات مختلفة من الجنـوب التونسي ميدانـا فسيحا للتجربـة والاختيار؛ فلم يجد من يشبـه أسرة الحاج علي في دمـاثة الأخـلاق، وحسن المعاشرة، وصـدق المعاملـة. لهذا كلّه اطمأنّ الشيـخ مفتاح إلى الحاج علي وأسرتـه، وسمح لابنتيه الـوحيدتين بأن تتّصـلا بهذه الأسرة. وهو أمر لم تعرفاه من قبل.

وشاءت الصدف أن يبدأ تعارف الأسرتين من القاعدة لا من القمّة. بـدأ بين الفتاتين، فاطمـة ابنة الحاج علي وعـائشة بنت الشيخ مفتـاح. ابتدأ التعـارف ساذجـا بسيطا. ثم اتّسع شيئـا فشيئا فشمل كافة أفراد العائلتين.

فاطمة ما تزال تذكر اليوم الذي ابتدأ فيه الشيخ مفتاح عمله في بستان سي صـالح. لقد جـاءت في ذلك اليـوم إلى البستـان. كان الفصل ربيعا تفتّحت فيه الأزهار، واخضرّت الأشجار بعد أن خلعت عنهـا ثـوب الشّتـاء الأجـرد الكـالح، وتحلّت بحلل

الرَّبيع زاهيةَ المنظر، فوّاحة العبير.

كانت فـاطمة على موعـد مع وردة في ذلك الصَّباح، تـركتها بُـرْعُما في عصر اليـوم السـابق لتلقاهـا وردة زاهيـة، مكتملـة، تفتَّحت على ضوء الفجر وتباشير الشروق. وفـوجئت فاطمة في ذلك الصبـاح بشيء غـريب في بستان جـارهم. لقـد سمعت كلامـا. ثم سمعت صـوتا نـاعما يردّد نغمات وألحانـا لم تسمعها من قبل، فتطلَّعت إلى مبعث الصـوت فـرأت مشهـدا غريبـا؛ شـاهـدت بنتا كبيرة تحبـو في البستـان كما يحبـو الطِّفل أحمد ابن جارتهم «مسعودة».

ودفعهـا حبّ الفضــول والتَّطلع إلى الاقتراب من السيـاج. وأخـذت تـراقب عن كثب حـركـات وسكنـات هـذه البنت الكبيرة. رأتها تسرع في حبـوهـا وتقطع من الأرض مـا يقطعـه الماشي عندما يحثّ خطـاه. كانت تستعمل ركبتيها كما يستعمل النّـاس أقدامهم. أمّـا قدمـاها فكـانتا مـرفوعتين إلى فـوق، إلى السماء كأنّهما تتجهـان إلى الله بالـدّعاء مثلما تـرفع جدّتُها أكفَّهـا عندمـا تتضرّع إلى الله وتدعـو بالخاتمة الحسنـة وسعادة الـدّارين للأولاد والأحفاد.

وتظـاهرت فـاطمة كأنّها تطـارد عصفـورا أو فراشـة. فعلت ذلك كي تجلب انتباه هذه الطفلة الغريبة. وفعلا فما إن أحسّت

بحركة فاطمة حتى التفتت ناحيتها، فابتسمت لها فاطمة وحيّتها على بُعْدٍ فردّت عليها الطّفلة الغريبة بلطف وبشاشة.

واكتفت فاطمة بهذه التَّحيَّةَ القصيرة. وعادت الى المنزل تحمل معها وردتها المفتّحة وصورة غريبة لهذه البنت التي وجدتها في بستان سي صالح ... وقصّت على أمّها وأبيها ما شاهدته في ذلك الصّباح المشرق.

كانت فخورة بتلك المفاجأة فاعتبرت نفسها مكتشفة شيئا جديدا اطّلعت عليه قبل أفراد الأسرة. لا سيما والدها الذي تأخر ذلك اليوم عن الذّهاب إلى البستان كعادته؛ فقد أرسل إليه شيخ التراب يطلب منه الحضور في الصباح لمراجعة مطلب كان قدّمه في أواخر الصيف الماضي بشأن سلفات البذر. وحالما عاد أخوها عبد الله من عمله استقبلته عند باب المنزل وقصّت عليه قصّة الطفلة الغريبة، فتأثّر تأثّرا بالِغا وعَلَتْ سحنات وجهه سحابة من الوجوم والكآبة وقال في نفسه:

«... إنّها مسكينة! تدعو إلى الرثاء والإشفاق... ترى كيف تكون نهايتها!؟. كيف سيكون إحساسها عندما تبلغ سنّ النضج، عندما تناديها أنوثتها إلى الأمومة، إلى الزّوج، إلى الأبناء؟. لعلّ هذه البنت كتب عليها أن تكون عبرة وعظة.. إنها ضحيّة ولا شكّ..»

وابتسم عبدالله، وهو يغيّر ملابسه وقال:

«... هل أصبحت فيلسوفا يبحث عن المثل العليا؟ هذا ليس من شأن بائع كيلو السكّر، ولِيترة الزيت! أوه! اللّه يدبرها. كما يقولون. حتى قريتنا الصّغيرة أصبحت تمثل مجموعة من نماذج البشريّة في صورها وأشكالها!...»

وما إن ازدرد آخر لقمة من عشائه حتى كان في طريقه إلى مقهى القرية ليلعب الورق مع رفاقه الذين اعتاد منازلتهم باستمرار ممّن كانوا يلعبون «التريستي» كلّ ليلة. ولم يلبث حتى جاء الرّفاق وعقدوا «خمسة تريسيتي» وانغمس في جوّ «الترّى» و«اللص» و «الشكبة». ونسي تلك الفلسفة والتأمُّلات التي أوحت بها إليه كلمات أخته، وهي تصف البنت الغريبة التي رأتها في بستان سي صالح. وفي التّاسعة ليلا غادر عبد الله المقهى مورّد الخدّين، محمرّالأذنين بعد أن مُني بانهزام كبير في لعبة «التريسيتي»... كان حظّه هذه اللّيلة نحسا على طول الخطّ... لكأنّ بينه وبين الخطّ ثأرا هذه المرّة... لكن الغلطة كانت منه... لقد «شامى» له صاحبه على «ترى السطون» فلم ينتبه، وعرفه على «لصّ الدّيناري» فظنّه «لَصّ الكُبْ».

وسار في أزقة القرية المجلّلة بالظلام، مستعرضا أشواط

اللّعب الثّمانيـة شوطا شـوطـا . وعلى حين غفلة ارتطم بحجـر فكـاد يسقط على الأرض . وأفزعت عثرته عنزا ضالـة فشردت هاربة خـائفة، وإذا منظر العنز في هذا الظّلام الـدّامس يعود به إلى الطفلة الغريبة.

« ... إنّها كهذه العنز! تمشي على أربع ... تشابه نحس ... هل كانت الهزيمة بسبب التفكير في شقائها وتعاستها؟ . . »

وصل إلى المنـزل، وهـو في جـوّ نفسي مفعَم بـالتبرّم والتّطيّر. وأحس بعطش شـديـد ونــار تلهب أحشـاءه فـذهب إلى «الدّفوجة» يطفيء ظمأه منها إلى أن تنفّس في قاعها. ثمّ اندسّ في فراشه، فراش الأعزب في قرية من قرى الجنوب. وهل أبسط من هـذا الفـراش؟ حشيّة ومخدّة مـن تبن، ملحفة وبطّـانيّـة. وحاول النّـومَ فوجد فراشـه كالقتاد... إنّه غير مستعدّ للنّوم. لم يتحمّل أن يهزمـه التّهامي وبلقـاسم على تلك الصورة، فغـادر فراشـه وخرج إلى الحوش يقطعـه جيئة وذهـابا. كـان الجوّ باردا بـرودة ليالي الـرّبيع عنـدما يكـون الجوّ صحـوا: السماء صافيـة والنّجـوم لمّاعـة لألاءة، والثّـريـا تبـدو كعقـد من الماس أوتـاج مرصّع على شعر فاحم السواد...

وفكّر في العودة إلى المقهى لينازل خصومه من جديد... لكن التهـامي وبلقاسم غـادرا المقهى... وهل تسهر القـرية إلى هـذا

الوقت؟ وسمع صرير باب المنزل فتساءل عمّا إذا بقي أحد من الأسرة سهران إلى هذا الوقت. ثم سمع نحنحة عمّه في السقيفة فأسرع بالعودة إلى الغرفة وانبطح على الفراش. كان يخشى أن يراه عمُّه بوسط الحوش فيلومه على تمشّيه في هذا البرد وتعرّضه للصّرد. إن صرد الرّبيع أشدّ ضررا من برد الشّتاء. هكذا كان كبار القرية يحذّرون صغارهم من صرد الرّبيع وبرودة لياليه.

وارتخت جفونه بعد لأي وصرعه النّوم، وإذا به يعود إلى المقهى وينازل أقرانه في «التربسيني» ويبزّهم في جميع الأشواط. لكن زميله في اللّعب لم يكن محمودا. كان فتة بارعة الجمال، ممشوقة القدّ، وافرة الذّكاء. «شامت» له على «النّباطة» ففهم أن عندها «اللّص» و «الموجبرة». وكان بكفّه «الترى» و«الدّو». وألقى بالدو وإذا بخصميه يرميان «الرّي» و «الكوال» فصاح مبتهجا «كبُّوطْ»! «كبُّوط!»

عندما استيقظ في الصّباح الباكر كان ما يزال في نشوة الانتصار على خصميه... لكنّها أضغاث أحلام لا تجديه... إنّه لا يستطيع إخبار خصميه بما صوّره له النوم؛ لأنّ ذلك سيزيده نكاية وزراية به. على أن الذي أثار استغرابه وحيرته هو ما صوّره له النوم من أمر هذه الفتاة التي انتصر بها على منازليه... إنّه لا يعرف هذه الفتاة اللّعوب! لم ير وجهها من قبل... فمن أين جلبت مخيلته هذه الصورة؟ لقد حدّثته أخته عن البنت

الغريبة التي تدعو حالتها إلى الرثاء والاشفاق! فهل عبثت ب الأحلام إلى هذا الحدّ؟ وصوّرت له الأمر بعكس الواقع! أيّ تناقض هذا؟ وأي عبث يجيده الباطن؟ وأحسّ - لأوّل مرّة - برغبة شديدة وشوق عارم إلى رؤية هذه البنت... إلى مقارنة تصوّرات الأحلام بحقيقة الواقع... إنّه يشتغل كاملَ اليوم فلا يستطيع الذّهاب إلى البستان إلاّ بعد ظهر الجمعة.

وفكّر في اختلاق عذر يتقدّم به إلى صاحب المتجر كي يغيب نصف يوم عن عمله. إلاّ أنّه عدل عن ذلك، وصرف جاهدا هذه الهواجس. وغادر المنزل ملتحقا بالمتجر قبل قدوم الزّبائن والحرفاء.

اليوم يوم الخميس فيه يقبل الشراة بكثرة من الرّيف والبادية القريبة؛ فلم تسوّل له نفسه أن يترك «عرفه» وحده في هذا اليوم المخصب من أيّام الأسبوع.

وعندما وصل باب المتجر أخرج من تحت «القشّابية» المفتاح وأدخله في ثقبة القفل وأداره في اتّجاه اليمين مرّة أولى ثم مرّة ثانية محدثا قرقعة مزعجة حادّة. وبحركة آلية فتح الباب وشرع في ترتيب المكاييل والموازين ورصفها في أماكنها.

ثم أخذ المِنشّة ينفض بها الأتربة التي نزلت من السقف أثناء الليل. ونظر إلى شجيرات الحرمل المتدلّية من السقف وإذا هي

مملوءة ذبابا تكدّس عليها والتصق بها بعد أن فقد حياته القصيرة.

«... الذّباب! كم قتلت منه شجيرات الحرمل؟ آلاف وآلاف كنسها ورمى بها في الزبالة. لكن الذباب دائما في كثرته وتكالبه على الحرمل المميت. إنّه يتهافت عليه ليموت. وفي الوقت نفسه يتكالب على الولادة والإنتاج. فماذا تفيد هذه الحرب السجال معه؟..»

وركست ذبابة على مؤقه فأبعدها بعنف. وطارت الذّبابة. ثمّ عادت لتجثم على خدّه، فأعاد الكرّة يطردها بعنف أقوى وحنق أشدّ... ماذا تريد منه؟ أيطلي وجهه بالزيت حتى لا تقع عليه؟ وقبض بشدّة على المنشة وأخذ يتصيّد الذّبابة. وقبل أن يسدّد لها ضربة قاتلة دخل أول زبون الى الدكّان:

- نهاركم سعيد.

- نهاركم أسعد الأيام.

- أعطني مائة قرام شاي ونصف رطل سكّر

- أحمر أو أخضر،

- أحمر، يا ابني

- الله يبارك، يا بابا.

وشرع يزن الشاي والسُّكّر. لكنّ عينيه لم تكفّا عن التأمُّل في هذا الوجه الجديد، والرجل الغريب. إنّه ليس من سكّان القرية، وليس من البدو المنتظر قدومهم إلى الدّكّان بعد ساعة أو أقلّ.

كان مظهر الزبون واضح الشيخوخة، قدّر له من العمر ستّين سنة على الأقل، كان يبدو عليه الوقار والاتزان. وتنمّ سحنات وجْهه عن ملامح جمال أصيل: بشرة بيضاء يمازجها احمرار قرمزي، وعينان واسعتان عسليتان، وجبين مجعّد يوحي بقصّة طويلة في مقارعة الزمان ومصارعة الأحداث.

وبعد أن قبض عبد الله ثمن الشاي والسكّر دفعه الفضول إلى أن يسأله:

- أنت جديد عندنا، يابابا، أوْ عابر سبيل؟

- جديد، ياولدي. لقد وصلت منذ أيّام فقط.

- مرحبا! مرحبا... إقامة مباركة إن شاء الله.

- المقدّر كائن، يا ابني... بدأت أشتغل خمّاسا في بستان سي صالح بن الحاج على عادة العرف الجاري.

- مربوحة، يا بابا... سي صالح نعم النّاس... تسعد وتربح معه بحول الله... الشركة بركة.

ـ الجبرُ على الله، يا ولدي ... الله يقدّر الخير.

ـ أيمكن أن أعرف اسمك؟

ـ عبد الله.

ـ كل النّاس عباد الله!

ـ مفتاح

ـ يا بابا مفتاح، احمد الله على أنّ قسمتك جاءت مع سي صالح ... الايام ستريك صدق هذا القول.

ـ يحمد رباك، يا ولدي ... الله يستر ... السلام عليكم.

وانصرف الشيخ حاملا معه الشاي والسكر، تاركا عبد الله في دوّامة نفسية شديدة.

« ... الشيخ مفتاح ... البنت الكسيحة ... إذن هذا هو أبو الطفلة التي حدّثتني عنها أختي فاطمة ... إنّها ابنته إذن ... مسكين هذا الشيخ!.. أعانه الله على تحمُّل أعباء الدّهر ... حقا! إن تجاعيد جبينه تحمل هموم الدّهر وصروف الليالي ... لابدّ أن وراء هذا الشيخ قصّة ... لقد نسيت أن أسأله من هو؟ من أين قدم؟ إلى أيّ بلد أو قرية ينتسب ... لا بدّ أنّه سيعود مرّاتٍ إلى الدّكان ... إنّ ملامح وجهه تنبيء عن جمال! فهل هي حقا صورة ا بنته التي رأيتها في الحلم؟ إذا صحّ أنّها

على تلك الصّورة فهي مصيبة ... »

ـ السّلام عليكم .

ـ وعليكم السّلام .

ـ تشتري سمنا؟

ـ نعم .

ـ خذ هذه الجرّة . كلّها وحاسبْني .

ـ طيّبْ . اجلس من فضلك .

ـ السلام عليكم

ـ وعليكم السّلام .

ـ عندك لُبان؟

ـ نعم عندي .

ـ أعطِني أوقيّة

ـ حاضر .

ـ السلام عليكم .

ـ وعليكم السَّلام ... تفضَّل

ـ كيلو صابون من فضلك .

- حاضر.

- عندك فلفل أكحل.

- عندي ... كم تريد؟

- مائة قرام.

وتكاثرت الطلبات بتكاثر الزبائن قبل أن يأتي ابن صاحب الدكّان، فانهمك عبد الله في العمل ولم يعد يفكّر في الشيخ الذي كان أول حرفائه. واختفت عن مخيلته صورة البنت التي رآها البارحة في منامه تلعب معه «التريسيتي».

عاد عبد الله من المتجر منهوك القوى، مشنّج الأعصاب، فقد تجادل هذا اليوم مع عدد كبير من الحرفاء والزبائن. وتضايق كثيرا من مشاكسات محمد الحمروني ابن صاحب الدكان. كان يشاكسه ويعاكسه، ويأمره وينهاه بشيء من الاستعلاء والاستخفاف. وعندما عاد محمد إلى منزله أخبر والده بخصام عبد الله مع الزبائن فاغتاظ السيّد الحمروني. وجاء إلى الدكّان يخاصم عبد الله ويتّهمه بأنّه يعمل على إفلاسه وتنفير الحرفاء من المتجر.

السيد الحمروني ـ هذه الأيام ـ شديد الحساسية، سريع الانفعال... كان ضحيّة حسد أكول أقضّ مضجعه وحرق جفونه؟ فقد افتتح محمد النجّار متجرا جديدا بالقرية، فأقبل عليه السُّكّان مثل عادتهم كُلّما افتتح متجر جديد.

وبدأت المنافسة تزداد وتقوى يوما بعد يوم... فلمّا قال محمد

لوالده: إن عبد الله يخاصم الزبائن تصوّره يساعد تلك المنافسة وينمّيها فأقبل عليه مغاضبا وأغلظ له في القول. وحاول عبد الله أن يرّد تهجُّمات صاحب المتجر برفق ولين. وأن يبيِّن له أنّ المنافسة في التجارة لا تكون بهذا الأسلوب من التعامل الذي يريد فرضه على النّاس، ولا بهذا التّنافس الأخرق الذي يدعيه ابنه محمد. وأبان له أن ابنه غالطه وموّه عليه؛ فهو لم يخاصم الزبائن ولم يعمل على تنفيرهم. إنّما كان يجادلهم ويحاول إقناعهم نتيجة منافسة المتجر الجديدو إغراءاته، ممّا دفع ببعض الزّبائن إلى المماكسة ومحاولة استغلال هذه المنافسة التّجارية. إلاّ أنّ السيد الحسروني ركب رأسه في ذلك اليوم. واستمع إلى مغالطات ابنه وتمويهاته. ولم يقتنع بكلام عبد الله ولم يصدّقه حتى اغتاظ هذا الأخير وطلب إعفاءه من العمل ورمى إليه بمفاتيح الدّكان. وغادره محتدما غاضبا بعد أن ساءه موقف «عرفه».

إنّه لم يجازه على تفانيه و إخلاصه في العمل مدّة أربع سنوات كاملة كان ضميره دائما معه. وكان حبّ الخير المشترك وازعَهُ الدائم على الجِدّ والمثابرة. فلماذا هذا التشكُّك من السيِّد الحمروني؟.. ولماذا هذه الرعونة والفجاجة؟

ووصل المنزل، وهو ما يزال في فورته النفسيَّة، ظاهر الغضب، بيّن الانزعاج. لقد عُرف عبد الله بكظم الغيظ

ومغالبة الغضب. إلاّ أنّهُ هذه المرّة لم يستطع كظم غيظه...

وجاءت فاطمة بالعشاء. كان طبقا شهيا من «الكسكسي» بالعصبان. إلاّ أنه لم يجد رغبة في الاكل. وأشار إليها أن ترفع العشاء. ولاحظت عليه أخته الغضب والانفعال فحملت الطبق دون أن تنبس ببنت شفة. وأسرعت إلى أمّها تهمس إليها بما رأت على أخيها من غضب وعزوف عن الأكل. ثم قالت لها:

ـ نسيت أن أذكر لك أن «مسعودة» أخبرتني أن عبد الله خاصمه اليوم خالي صالح الحمروني؛ فعندما ذهبت عصر اليوم لتشتري كيلو مقرونة رأتهما يتشاجران بصوت عال ولهجة شديدة...

فقالت الأم:

ـ ما أخبرتني بخير، يا بنتي.

وذهبت مسرعة إلى عبد الله تستجلي الخبر. إلا أنها وجدته غادر المنزل إلى المقهى، فازدادت حيرتها، واهتاج بلبالها.

هذه أوّل مرّة تسمع أن السّيد الحمروني خاصم ولدها. ورغم ذلك فقد احتوشتها الظنون والتأويلات العديدة:

« . لعلّ عبد الله لم يحسن التّصرّف.. لعلّ السيّد الحمروني

شكّ في سلوكه!.. أيكون اتّهمه بالخيانة؟.. محال!.. سي صالح دائما يذكر عبد الله بالخير... يتحدّث بإعجاب عن إخلاصه وصدقه... فهل طرد عبد الله من العمل؟.. يا لفضيحتي بين نساء القرية!.. هل خدش عبد الله عرض هذه الأسرة؟.. ماذا يكون موقف أبيه بين الرّجال؟.. كانت أسرتنا مضرب الأمثال في الأمانة والصّدق... سمعة ورثناها عن الآباء والأجداد... هل سيهدّمها عبد الله في لحظة... اللّه، يا ولدي!.. أرضعتك لبني صافيا مصفّى... رجوت لك عرضا نظيفا نظافة ذلك اللّبن...»

ـ فاطمة... يا فاطمة. أين أنتِ، يا غِشّيرة...

وجاءت فاطمة على عجل بعد أن أزعجها هذا النداء الأجش الخانق من أمّها:

ـ اذهبي جهة المقهى...، وابحثي عمّن ينادي عبد الله... قولي له إنّي أنتظره...

فعضت فاطمة أصبعها ندما عما قالت لأمها. وخرجت دون أن تناقشها، تدعو عبد الله من المقهى. وفي أوّل الزّقاق لقيها أبوها عائدا من المسجد فسألها:

ـ إلى أين يا فاطمة.

ـ أمّي أرسلتني في طلب عبد الله

ـ في هذا الوقت! . . لماذا؟

ولما أعلمته بما حصل أمرها بالعودة حتّى يستوضح الأمر من أمّها. وقصّت عليه زوجته ما ذكرته لها فاطمة وما أخبرتها به صاحبتها مسعودة، فقال لها زوجها:

ـ لماذا هذا التّسرّع، يا بنت النّاس؟!

ـ يظهر أن الولد أخطأ؟

ـ لي ثقة في ولدي لا تتزحزح.

ـ وإذا طرده من العمل؟

ـ يكون أحسن. ألف باب مفتوح أمام عبد الله.

ـ هداك الله، يا رجل. إن هذا يُغري الولد.

ـ اسمعي ... صالح الحمروني يكاد يجنّ هذه الأيام ... لقد أكل الحسد قلبه منذ افتتاح المتجر الجديد. إنّ تصرفاته أصبحت محلّ الأحاديث والتّعاليق من كافة رجال القرية ... لماذا نتعجّل نحن؟ . دعي الأمر حتى يأتي عبد الله ونسأله.

ـ قلبي لا يحدّثني بخير... لتذهب فاطمة وتدعوه.

ـ عمّري قلبك بالله. وخلّي عنك وسوسة الشيطان.

ـ الله غالب . لم أصبر.

ـ فاطمة ... يا فاطمة .

ـ نعم . بابا .

إن أمّك لن يستريح لها بال الليلـة! اذهبي على عجل ونادي عبـد الله ... قولي لابن خـالتك ... لاتقـربي أنت من المقهى ... ابقي بعيدة .

وخرجت فاطمة تدعو أخاها بينما عاد الزوجان إلى الحوار:

ـ عبد الله لم يتعشّ .

ـ معنى هذا ألاّ أتعشّى أنا كذلك!

ـ قلوبكم قاسية ، أنتم الرّجال

ـ ما دخل القساوة في هذه السفاسف؟

ـ ابني أصابته عين، عينُ الحُسّاد ... كنت أتـوقّع هذا منـذ زمان ... فاتني أن أبخّر له بالوشق والدّاد .

ـ هل عدنا إلى الخرافة القديمة؟

ـ خرافة! . .

ـ نعم! خرافة! . . الولد محسود ... أصابته عين ...

فصل من عمله... لماذا كلّ هذا... قلت لك ترقّبي حتى يأتي ونعرف ما حصل.

ـ منذ أسبوعين تحدّثت عن ولدي «محبوبة» العجوز الشمطاء... إن عينها أحدّ من منجل الحصاد، وأنفذ من ناب العفريت... لم تخلق إلاّ للحسد.

ـ والنّهاية!. قومي. بخّري، افقعي عين الحسود... الوشق والدّاد في البيت. والكانون يلتهب.

ـ أتسخر منّي!؟.

ـ احترت معك، يا امرأة... ناوليني العشاء.

ـ اللّه! اللّه! لا ينقصنا إلاّ العشاء... حتى يأتي الولد... العشاء في البيت سوف لا يهرب.

ـ هل تريدينها ليلة زرقاء... ما هذا الموقف منك الليلة؟... غريب واللّه!. قلت لك: إن لي ثقة في ولدي... وعلى فرض صحّة خصامه مع الحمروني... الحمروني هو الخاسر، هوالنّادم. إن أبواب الرزق مفتوحة أمام عبد الله.

ـ تريد له الاغتراب والشّقاء.

ـ كيف نلتقي، باللّه... واحد مشرّق والآخر مغرّب... اسمعي. لا فائدة من الكلام الآن... عيب والله العظيم!

وقطع حوارهما طرق على الباب فسكتا معا. وهرولت الزوجة إلى الباب تظنّ أن عبد الله جاء. وإذا بها تعود مسرعة وتقول لزوجها بصوت خافت:

ـــ جمْع من الرّجال يسألون عنك... اللّه يسمعنا علم الخير... يا ستّار استر!

***

نهض الحاج علي واتجه إلى الباب في حذر مخافة أن يعثر في حفرة أو يصدمه جدار، لأن الظّلام اشتد وهو أعشى لا يكاد يبصر بالليل. وسرعان ما عرف الغرض الذي قدم من أجله هؤلاء الرجال مادام فيهم صالح الحمروني والحاج محمود وسي عبد الرزاق فقال لهم الحاج علي:

ـ أهلا بكم ... على سلامتكم... قدوم خير إن شاء اللّه.

فأجابه الحاج محمود:

ـ إن شاء الله خير... وما جئنا إلاّ في سبيل الخير... اسمع، يا مرحوم الوالدين، لقد حصل اليوم سوء تفاهم بين ولدك عبد الله وسي صالح. ورمى عبد الله بمفاتيح الدكان في وجه سي الحمروني... إن سي الحمروني لم يقصد إلاّ مصلحة الجميع. لكن الطفل لم يفهم المقصود... على كل حال نحن أتينا من أجل إصلاح ذات البين.

ـ إن قدوم هذه الوجوه الطيّبة ليس بالهيّن علي . لكن ماذا أقول لكم ؟ قال الأولون : القاضي يسمع من اثنين . أنا سمعت منكم . لكن ولدي لم أتّصل به ولم أسمع منه شيئا .

فقاطعه السيد عبد الرزاق :

ـ يا سي الحاج . كلامك صواب . وماكنا لنقدم عليك في «جبهية» لولا علمنا بحصافة رأيك ، وحكمة عقلك ... أنا أقول أكثر ممّا قال الحاج محمود ... أقول : إن سي الحمروني غالطه ابنه محمد ، موّه عليه حتى اغتاظ وأغلظ في القول مع عبد الله ... عبد الله له الحق . لكن عليه أن يعرف أن سي الحمروني بمثابة والده . والوالد يظلم ويربح كما يقولون ... عبد الله يرجع إلى عمله كالعادة ، وعفا الله عمّا سلف .

فقال الحاج علي :

ـ يا جماعة الخير تعرفون أن وجاهتكم عندي لا تردّ . إلاّ أنّي أعلمتكم أنّني لم أتّصل بالولد ولم أعرف رأيه .

فقال الحاج محمود :

ـ الإبل تمشي على كبارها ، يا حاج علي .

ـ كلامك صحيح . لكن جيل اليوم أنت تعرفه أكثر منّي !

وقال السيد الحمروني :

ـ أين عبد الله؟ لماذا لا يأتي ونسمع رأيه.

فقال له الحاج علي:

ـ عبد الله في المقهى. وما إن سمعت بالقضية حتى بعثت في طلبه.

فأسرع السيد الحمروني بالقول:

ـ أنا أمشي بنفسي وأناديه.

وفي هذه اللحظة وصل عبد الله مع أخته، ففوجىء بهذا الجمع من الرّجال يجلسون القرفصاء أمام باب المنزل، فحيّاهم بالسلام دون أن يعرف منهم أي واحد لشدّة الظلام، فبادره أبوه بقوله:

ـ يا عبد الله. إن أعمامك جاؤوا من أجلك الليلة. إن ما حصل بينك وبين سي الحمروني اعتبره لاغيا. والغلط مرجوع عنه، يا ولدي.

وخجل عبد الله فأطرق صامتا، مستسلما إلى صراع نفسي عنيف.

«... هل يرفض الطلب وتعود الجبهية خائبة؟ إن هذا صعب على والده، فتقاليد القرية قاسية شديدة... هل يمكنه أن يلوي العصا في يد والده فيتركه مضغة بين أفواه النّاس؟..

لكن العمل مع سي الحمروني أصبح لا يقدر على تحمّله ... هذه التصرّفات الرعناء من ولده؟ إنّه ضاق بها ذرعا ... وهذه اليمين التي تلفظ بها أمام جمع من النّاس؟ هل يبر بها أم يحنث؟ . . »

وطالت فترة الصمت والوجوم التي رانت على الجماعة، نقطعها السيد عبد الرزاق بقوله:

- وحّدوا الله، يا جماعة.

- لا إله إلا الله محمد رسول الله.

قال الحاج علي:

- تكلّم، يا عبد الله.

- أنا أقسمت على ترك العمل.

فقال السيد عبد الرزاق:

- الله يرضى عنك، يا ولدي. وهل عليك يمين؟ الحمد لله أنّك طفل أعزب فلا يلزمك طلاق. أمّا الحلف بالله فأنا أضمن لك الفتوى. وإذا أردتم، يا جماعة، فإنّي أذهب حالا إلى الشيخ الإمام وآتيكم بالفتوى.

وأحسّ عبد الله بحرج أكثر أمام إصرار «الجبهية» على التراضي والمصالحة، فإحراج والده سيكون أشدّ إذا تمسّك

بــرأيه ولم يأخـذ بــخاطر الجبهيّة . فــرفع رأســه بعـد إطراقه طويلة وقال :

- اسمعوا، يا سادة . إنَّ أيّ واحـد منكم هو بمنزلة والدي . الموجــود معكم . وهــذا مــا يجعلنــي أتكلّم معكم بصراحــة وصـدق . أنـا أقبل العـودة إلى العمل ، وأنسى كلّ مـا حصل . لكن على شرط أن استريح ثـلاثــة أيّام على الأقل ، وأن يبتعـد ولـده محمـد عن التّـدخـل في شـؤون المتجـر . واسمحـوا لي إذا قلت : إن كلّ الذي حصل يرجع في الأساس إلى تصرّفات محمد الحمروني . واعفوني من زيادة الشرح .

فقال السيّد عبد الرزاق :

- لا ، يـا عبد الله . قل كلّ شيء ووضّــح . نحن مـا نـريد أن نصالح على غرر . ولا نريد أن يبقى في نفسك شيء .

فتابع عبد الله كلامه :

- إن ولدك ، يا سي صالح أصبح يكرهني ويمقتني . لماذا؟

لأنني أريـد المحـافظـة على رزقك ومالـك . أمّا ولـدك فـلا يعجبه ذلك . هل تـرضى بأن أترك لـه الصندوق مفتوحـا يأخذ منه ما يشاء ومتى شاء؟ أنا لا أتحمّل هذا ، أيّها الأعمام ؛ لأنّه في وجهي ، يتّصل بأمانتي وسمعتي وشرفي .

فقاطعه السيد الحمروني قائلا:

ـ اسمع، يا عبد الله؛ شرطك مقبول... المهم أنّ تعود إلى الدّكان. وستكون مرتاحا إن شاء الله... لكن ثلاثة أيّام كثيرة عليّ. استرح غدا يكفي. وسأتولّى أنا بنفسي فتح الدّكان غدا... إنّ الوقت لا يسمح بغلق الدّكان كما تعرف... يلّه، يا جماعة مدّوا أيديكم للفاتحة.

وقرأ الجماعة الفاتحة تبريكا للصلح والتراضي. واستأذنوا في الانصراف. فقال لهم الحاج علي:

ـ هذا لا يصح. إنكم لم تشربوا كأس الشاي.

وصاح ينادي فاطمة. لكن الجماعة أصرّوا على الذّهاب معتبرين قبول جبهيتهم أعظم إكرام لهم.

وأمسك الحاج علي بذراع عبد الله ليقوده إلى المنزل. وفي السقيفة كانت أمّ عبد الله في انتظارهما. لقد سمعت كلّ ما دار من حديث فبادرتهما قائلة:

ـ هذه ساعة سعيدة... الحمد لله، ياربّي.

فقال الحاج علي منفعلا:

ـ باسم الله، وبالله... لم تتركينا... جئت تسترقين السمع وتتلقفين الحديث... ألم أقل لك إن لي ثقة في ولدي. لكن ماذا

أقول : إنك امرأة! ... على مراد اللّه .

فعقبت الام تقول :

- الله غالب! لم أصبر... الحمد لله ... مافات شيء .

والتأمت العائلة حلقة حول قصعة الكسكسي لتتعشى بعد أن اطمأنّت أمّ عبد الله وساغ لها الأكل .

لم يستيقظ مبكرًا كعـادته؛ لقـد تركته أمُّـه يشبع نوما في هذا اليوم الذي سيستريـح فيه ولا يذهـب إلى المتجر. وعنـدما عادت أختـه إلى المنزل ــ بعـد أن أوصلت المعزات إلى المسرح ـ كـانت الشمس قـد ارتفعت مقـدار ثلاث قـامـات. وبدأت أشعَّتُهـا تدخـل من شقوق بـاب الغرفة إلى حيـث يغط عبد الله في نـومه العميق. واشتـدّ لفح تلك الأشعّــة على جبهتـه فـاستيقظ من نومـه، و عزم على مغادرة الفـراش. وتذكَّر أنّـه لايشتغل في هذا اليوم فأعـاد رأسه على المخدَّة، وأسلم قياده إلى النوم مـن جديد بعد أن زحزح حشيّةَ التِّبْن جانبا عن أشعّة الشمس المتسرّبة.

لم يدر كم مضـى عليه من الوقت بعـد ذلك، إلاأن الحديث الـذي كان يجري في الحوش أبعـد عنه النـوم فـانتصب جالسـا يفـرك عينيـه ويتسمّع إلى الحديث... كـانت أمـه تقـول لأختـه فاطمة:

ـ خـذي هـذه الكسرة وأعطيهـا إلى البنت عـائشـة ؛ فإنّها مشتاقة إلى كسرة قمح كما كنت تقـولين منذ زمان ... لاتنسي قتّة البصل والسلق . إن والـدك اشتهى «كمُّـونيّة» وسيشري اليـوم « دوّارة » .

وما كـاد ينتهي من سماع هذا الحديـث حتى ارتدى مـلابسه كيفما اتّفق وخرج إلى الحوش ، وهو يكاد يجري . وقبل أن يصبّح على أمّه قال لفاطمة :

ـ ترقّبي ، يا فاطمة . سنذهب معا الى السانية .

وبعد لحظات قليلة كان عبد الله وأخته يخترقان شوارع القرية في طريقهما إلى السّانية .

... بدا له أن المسافة بعيـدة بين الدّار والسانية ... تمنّى لو أن الأرض طُويت لـه طيّاحتى يصل في طرفـة عين ... لماذا كلّ هذه العجلة؟ . . أكلّ هذا بسبب رغبته في رؤيـة البنت الغريبة التي وصفتها أخته؟

ووصـلا الى السّانيـة . ومـرقت فاطمـة كـالسهم إلى السانيـة المجاورة ، وهي تلوّح بكسرة القمح لتقدّمهـا هديّة إلى صديقتها عائشة . أمّا عبد الله فوقف متردّدا .

« ... هـذه أوّل مرّة يأتي فيهـا إلى السّانيـة منذ أن ابتـدأ الشيخ

مفتاح يشتغل عنـد جارهم سي صالح ... مـاذا سيقول للشيخ مفتاح؟ بماذا سيحدِّثه؟ بل كيف يبدأ معه الحديث؟ ... »

وطال تردّده . كـان يقدّم رجلا ويؤخـر أخرى . وصل مرّتين الى السيـاج ثم تـراجع . وتعجّب ممـا هـو عليـه من تـردّد واضطراب .

« ... أهـو جبن أم هـوس؟ ... لماذا هـذا الشعـور الغـريب والإحساس المبهم؟ وبحركـة لا شعورية اقتلع رأس بصل ورمى به بعيدا في الزقاق ، فضحك وسخـر من نفسه قائلا : ترى ماذا يحصل لو أنّني أمسكت بحجر بدل رأس البصـل ، وألقيت به في الزقـاق فأصاب أحد المارة؟ مـاذا يكون موقفي؟ ومـاذا تكون النتيجة؟ . . »

وتـذكّر أنَّ مـدير المدرسـة كثيرا ما كـان يردّد عليهم بيتـا من الشعـر ليبعـث فيهم الحميَّة ، ويلهب فيهـم الحماس . وحـاول جـاهـدًا أن يتذكّـر ذلك البيت ، فلـم تسعفه ذاكـرتـه بـه . ثمّ أمسك ببعض كلماتـه حتّى تجمع لـه المعنى فقـال في نشـوة المنتصر« ... المقصـود ... فسـاد الـرأي في التردد ... ولكن ... ولكن ... فساد الرأي أن تتردد ... »

وتنفَّس الصعـداء . وبعث فيـه عجـز بيت المتنبي قـوة ،

فاقتحم السياج الفاصل، سالكا مسلك ساقية الماء. واتّجه صوب الشيخ مفتاح الذي كان منهمكا في عزق الأرض. ولما أصبح قيد خطوتين منه قال يحيّيه:

- الله يعينك، يا شيخ مفتاح.

- الله يسلّمك، ياولدي. أهلا بسي عبدالله! زارتنا البركة، يا سيدي.

ثم التفت إلى الكوخ وصاح بصوت عال:

ـ مبروكة! . . يا مبروكة! . . احضري الشّاي... يَلَّهْ. . بسرعة.

ورمى بالمسحاة جانبا، ونفض التراب عن يديه بخبطهما عل فخذيه وجاء يصافح عبد الله. ثم انتحى به ناحية ظليلة. وطلب منه الجلوس ريثما يحضر كأس الشاي. وقال له:

ـ كان من اللازم، ياسي عبد الله أن تخبرنا بقدومك حتى نكرمك... الحق ... الله يسمعنا عليك الخير... كلّ من عرفتهم في هذه المدّة القصيرة يلهجون بذكرك. كم كنت أتمنّى أن أجلس عندك بالدكّان... لكن أنت تعرف أن لي ابنتين يتيمتين صغراهما كسيحة. لهذا فأنا محبوس هنا لا أغادرهما إلاّ لضرورة...

فعقب عبد الله :

- استغفر اللّه، يا عم. الإكـرام واجب علينا . . أنت رجل غريب، محتـاج إلى المعونة والمؤانسـة، لقد دخلت قلبي من أوّل يوم جئت فيه إلى الدّكّان.

- الله يمدّك بالعون والتوفيق. ويأخذ بخاطرك.

- باللّه يا عم مفتاح - إذا لم يكن حرج - كيف وصلتم إلى تونس؟

- آه. يا سي عبد الله، قصتي قصّة طويلة... المقدّر كائن، يا ابني... أصلنا من قبيلـة «المحاميـد» الليبية. وكنت في شبيبتي أعيش بين طرابلس ومصراطة. وجـاءت حرب الطليان فشردتنا ومزّقتنا شرّ ممزق...

وتنهّد الشيخ بمـرارة فأحسّ عبد الله بندم لما أثـاره من كوامن الشيخ ولـواعجـه؛ فأدار مجرى الحديث إلى الفـلاحة والـزّراعـة والمحصول. وبعـد أن شرب كأس الشاي استأذن في الانصراف ونادى أخته فاطمة، فلم تسمع نداءه: فقال له الشيخ مفتاح.

ــ عـرّج على الكـوخ، يا سي عبـد الله. البنـات مشغـولات باللّعب والحديث، فلم يسمعن صوتك.

***

اتّجه إلى الكوخ! كان قلبه يزداد خفقانا كلّما اقترب. فتساءل مرّة أخرى عن سبب الاضطراب النفسي. ثمّ تراءت له صورة البنت التي رآها في المنام تلعب معه «التريسيتي» فاشتدّ وجيب قلبه وارتفعت نبضات وريده. وعندما وصل الساحة التي أمام الكوخ رأى فتاة ـ عرف فيما بعد أنّها مبروكة ـ منهمكة في طحن الشّعير، وهي تترنّم بأهازيج بدوية عذبة على نغمات اللحن «العرضاوي» الجميل فوقف ينعم بهذا الصوت الحنون الذي كوّن مع صوت الرّحى مزيجا من الموسيقى بدا في غاية اللطف والانسجام. واستحى من وقفته تلك فنادى أخته بصوت مرتجف محتشم. والتفتت مبروكة مذعورة إلى مصدر النداء الغريب؛ فلما رأت عبد الله ابتسمت في خجل وقالت له:

ـ على سلامتك، يا سيدي... فاطمة هناك مع عائشة تحت التوتة.

وأخذت حفنة من شعير ورمت بها في قلب الرّحى، بينما كان هو يبحث بنظرة لاهفة عن فاطمة وعائشة. واستقر نظره على شجرة التوت الوارفة الظلّ المتشابكة الأغصان، ورأى فاطمة مستندة إلى جذع الشَّجرة فمشى نحوها وئيد الخطى إلى أن اقترب منها دون أن تنتبه إلى مقدمه.

وقف مأخوذا مشدوها... منظر جميل ملك عليه أحاسيسه

وعـواطفـه... عـائشـة جـالسـة على الأرض تمشط شعـرهـا وتسرّحـه... كان شعـرهـا فـاحم السـواد، مسترسلا مسـدولا، يغطّي كـامل وجههـا ويتدلّى إلى مـا تحت منكبيهـا وصدرهـا. وكانت أشعّـة الشمس المتسرّبة من خـلال الأوراق تشكل دوائر صغيرة على الأرض، وعلى شعـر عـائشـة، وكـامل بـدنها كأنّما نثرت في المكـان كمّية من الـدّنانير أو «المحبـوب» فتناثـرت هنا وهناك تبعث بالبريق، وتـوحي بالروعة والجمال. وتسمّـر مكانه أمام هذا المشهد البديع الخلاب فكاد يجهر بالتكبير والإعجاب لو لا أنّه ضبط أعصابه وكبح جماح عواطفه.

وتـراجع خطـوات إلى الوراء ونـادى فـاطمة، فـالتفت إليـه مندهشـة. ثم ابتسمت لما رأته وأقبلت عليـه. أمّا عـائشة فما إن سمعت النّداء حتى فـرقت شعرها ورمت به على كتفيهـا، فبانَ وجْهُهَـا الصَّبـوح المشرق في إطـار من الشعـر الأسـود الفـاحـم. ونظـرت إليـه بطـرف كـاسر فـأحس بسهم يصيب سـويداءه. ولم يتحمّل نـظرات هـذه العيـون الدعجـاء الحالمة فأطـرق إلى الأرض. وطلب من أختـه أن تعـود الى المنـزل؛ لأنّ أمّها تنتظرها.

وفي الطّـريق كـان شـارد اللُّب، سـاهم النّظـر، مضطـرب البال. كـان يكرر كلمـة «المحاميد» التـي سمعها من الشيخ.

ثم تذكّر الأغنية الشعبية المشهورة:

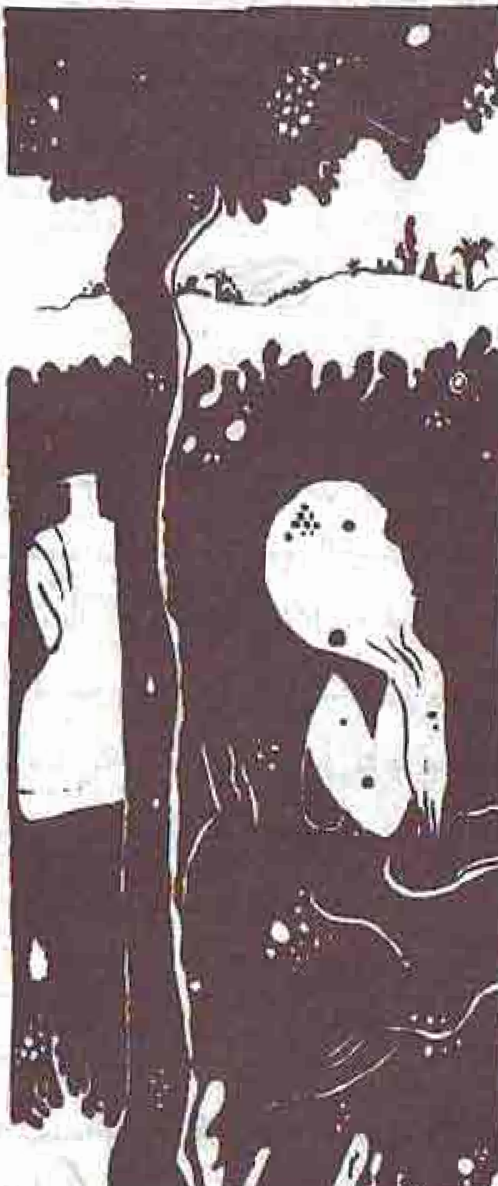
بخنــوق بنت المحـــميــد عيشــةْ

ريشــــه بــــريشــةْ

عـــامين مـــا كمّلـــوش النقيشـــةْ

وأخـذ يترنّم بها فيما بينه وبين نفسـه. يـردّدهـا، يستعـذب معانيهـا وكلماتها. لقد دسمع هذه الأغنية مرات ومرّات. وكان كثيرا ما يردّدهـا ويغنّيها مع رفاقه في سهـراتهم وأنسهم. لكنّه لم يشعر أبـدا بهذه الروعة التي شعر بها اليـوم. ولم ينتبه من قبل إلى مـا في الأغنيــة من تغـزل وافتتـــان بحسن وجمال بنـــات «المحاميـد»... اليوم فقط عرف سرّ تلك الاغنية... عـرف سرّها منذ اللحظة التي كشفـت فيها عـائشـة عن وجهها الصبـوح، وأزاحت عنه جدائل شعرها الاسود الجميل.

ولم تطل بعبـد الله النشوة، فما لبث أن خيّمت عليـه سحابة حزن أليم، وشملـه ضجر بالغ، وحسرة مـريرة. لقد تـذكّر أن هذه الفتاة الفاتنة أصابتها الأقدار بعـاهة قاسية، عاهة جعلتها تحبـو كالـرضيع، وتمشي على أربع كـالحيوان الأعجم. فتأسّف لحالها، وحزن لسوء حظهـا المنكود، ودعا لها ـ مخلصـا ـ بالصبر وقوّة الإيمان حتى تتحمّل مصيبتها بثبات المؤمن وصـــبره.



كانت أشعة الشمس المتسربة من خلال الأوراق
تشكل دوائر صغيرة على الأرض، وعلى شعر عائشة

وظلّت صورة عـائشة ماثلة أمـامه كامل اليوم فلم تفـارقه إلاّ في المساء عنـدما انغمس في لعبة «تريسيتي» مع رفـاقه في مقهى القرية.

مضت شهور دون أن تزول عن مخيلة عبد الله صورة عائشة، وهي تمتشط تحت شجرة التوت. ومنذ تلك اللحظة أصبح يشعر نحوها بشديد من الإشفاق وكثير من العطف. وكان حزنه ينمو ويشتدّ كلّما تذكّر ما هي عليه من وضع شاذّ قد يحول بينها وبين ما تحلم به كل أمرأة، وترنو إليه كل فتاة. وما كان يخطر على باله أن تلك العاطفة وذلك الإشفاق سينقلبان ذات يوم إلى حب صارخ أو هيام عنيف.

إنّ الحبّ - كما يفهمه أصحابه من الشباب - أبعد الأشياء عن قلبه. وقد كانت له مواقف عديدة، ومناقشات حادّة حول الحب والغرام كلّما خاض أصحابه في الحديث عن الحب والغرام، حتى بلغ الأمر عند هؤلاء الأصحاب أن أطلقوا عليه لقب «الجلمود» لشدّة ما كان ينكره من أمر الحب، وأسر الاحساس والشعور. وكان لصديقه محمود اليد الطولى في إطلاق

هذا اللّقب عليه. محمود هو الوحيد من فتيان القرية الذي تهيّأ له أن ينال نصيبا من العلم وحظًّا من الثقافة بعد المدرسة الابتدائية، فسافر إلى تونس ودرس سنتين في التعليم الثانوي. وتعلّم ـ فيما تعلّم ـ بيتا من الشعر لعمر بن أبي ربيعة يقول فيه:

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى

فكن حجرا من يابس الصخر جلمدا

فكان محمود ينشد هذا البيت كلّما أمعن عبد الله في نكران الحب ومفعوله. وكان ذلك سبب إطلاق لقب الجلمود عليه بين رفاقه من الشباب.

عبد الله لا يعترف إلاّ بنوع واحد من الحب، هذا الحب الذي يكنّه لأمّه، فيملك عليه إحساسه، ويأسر وجدانه، ولا يستطيع له دفعا. وما عدا ذلك فلغو وتهويش. إلاّ أن صورة عائشة التي ارتسمت في مخيلته واستقرّت في قلبه جعلته يتساءل بإلحاح عن سبب تعلّقه بتلك الصورة وعن دافع تشبّثه بها. فهل هو الحب الذي يعنونه؟

واقتنع ـ أو حاول الاقتناع ـ بأن تلك العاطفة التي نمت وترعرعت نحو عائشة ما هي إلاّ عاطفة إشفاق محض، مبعثه الرحمة وحبّ السّعادة للإنسان، ورجاء الخير للآخرين. ومن أجل ذلك كلّه كان يمدّ الشيخ مفتاحا بالمساعدة المالية كـ

وجد لـديه سَعَة من الإنفاق والإحسان. وكـان يطلب من أخته فاطمـة ألاّ تتخلّف عن زيارة ابنتيـه مبروكة وعائشـة تسليةً لهما، وبعثا لـلأنس والاطمئنان في قلبيهما. ومن أجل ذلـك أيضـا وهب للشيخ مفتـاح مـائة وخمسين فرنكـا في مـوسم عيد الفطـر ليشتري له ولبنـاته مـا يفرحـون به في العيد، ويبعدون به الشظف والحرمان في يوم يفرح فيه كلّ سكان القرية ويبتهجون.

وعاش في هـذا الجوّ من الأحاسيس والعواطف بعـد أن كيّفه كما رآه واستمـرأه كما اعتقـده. وكـان يخوض مع نفسـه في ذلك الجوّ كلّما خلا إلى نفسه في حديث أو دخل معها في حوار.

***

عبقت رائحة «التكروري» في جوّ الغرفة. وابتـدأت الرؤوس تمايل، وتهتـزّ النفـوس لأتلّ نكتـة. وأخذ الـرّفـاق المحتفلـون بعُـرس صـديقهم إبراهيم يضحكـون ويصفّقـون. وانسـاقـوا مسرعين إلى الحديث عن الحبّ والجنس، والعـزوبـة والزّوجيـة. ماعـدا عبد الله الـذي ظلّ كعادتـه ينفر من ذكـر الحبّ، ويكره الحديث عنه. ولكنّ محمودا، وقـد ضجر من موقفه، تـوجّه إليه يسأله في لهجة ظاهرة التّحدّي:

ــ هل معنى مـوقفك أنّك ستعيش حيـاتك أعزب. أم أنّك ستعشق القمر والنُّجوم؟.

فأجابه عبد الله متذمرًا:

-يؤسفني أنكم لم تفهموني إلى الآن. حتى أنت، يا محمود لم تفهمني. أنا لا أنكر الزواج... هذا أمر جبلّيّ في الانسان انبنت عليه الدنيا، وإنّما...

فقاطعه مختار:

-أتسمع كلامي؟ خذ لك نفسا من هذا «السبسي» وستعرف معنى الحب.

فاحمرّ وجه عبد الله. واستشاط غضبا، بينما أغرق الجماعة في قهقهة متواصلة، فنهض مغاضبا وعزم على مقاطعة السهرة. إلاّ أن إبراهيم «السلطان العريس» ومحمودا «وزيره» توسّلا إليه بألاّ يفسد عليهم السّهرة، وألاّ يقلب الأنس إلى وحشة. وبعد إلحاح شديد استجاب لرغبة السلطان ووزيره. وبقي مع الجماعة إلى النّهاية دون أن يعودوا إلى الخوض في الحديث عن الحب وعن موقف عبد الله منه.

انفضّت السّهرة. وعاد كل واحد إلى منزله. ولم يبق في الدّار إلاّ إبراهيم ومحمود ومختار، فارتمى كلّ واحد على ما تيسّر له من فراش رغبة في النّوم بعد هذا السهر الصّاخب إلاّ مختارا لم يهدأ له بال. وظل يفكّر في شأن عبد الله. هل صحيح أنّه لا يؤمن بالحب؟ هل قبل لقب «الجلمود» من باب المغالطة أم هو عين

الواقع؟ . وبرنت بخاطره فكرة! لقد قال عبد الله « ... خذ لك نفسا من هذا السبسي وستعرف الحبّ... » إذن فالأمر سهل . أليس هو الذي يتولّى طهي الشّاي؟ وهو الذي يديره على الرفاق!؟

وفي مساء الغد قال مختار لابراهيم ومحمود ـ قبل أن يأتي الرّفاق:

ـ اسمعوا . دعوني اللّيلة أدبّر الأمر مع عبد الله . لقد غضب ليلة أمس لما ناقشه في شأن الحب . أمّا هذه اللّيلة فسيحدّثنا كثيرا عن الحب . وسيفضي إلينا بمكنونه .

فقال ابراهيم:

ـ ماذا ستفعل؟ لقد أخفتني بكلامك .

أجابه مختار

ـ دعني وما دبَّرت من أمر ... المهم ألاّ يغضب عبد الله... سوف لا يغضب ... أنا كفيل بذلك.

وقال محمود:

ـ تذكّر أنّنا في حفلات زفاف! . . لا نريد منغّصات فأجابه مختار:

ـ الامر بعكس ما تتوهّمان .

وقال إبراهيم في لهجة الحذر:

- قل إذن ماذا ستفعل؟

فقال مختار في شيء من التخابث:

- هذا سرّ المهنة!

وعاد إبراهيم يقول:

- أنا لا أشكّ في إخلاصك... لكن للمزاح حدود.

فردّ عليه مختار:

- نعم! للمزاح حدود وسدود. اطمأنوا، وما عليكم.

***

تتابع قدوم الرّفاق حتى اكتمل جمعهم، فانهمكوا في السمر والغناء ولعب «الكارطة» بينما كان مختار مشغولا بطهي الشاي يتحف به الإخوان حينا بعد حين. وتبعًا لما جرت به العادة في شرب الشاي أن الكأس الأولى تكون مركّزة ثقيلة تتغلّب فيها مرارة الشاي على حلاوة السكّر، فقد انتهز مختار هذه العادة وركّز الشاي أكثر من المعتاد وقلّل من كمية السُكّر. ثم عمد إلى الكأس التي سيقدمها إلى عبد الله فوضع فيها نقيعا من حشيشة «التكروري» كان قد هيّأه من قبل. وأقبل بوزع شايه على الجماعة فتناول عبد الله كأسه مع المتناولين. وضجّت الجماعة

لمرارة الشاي فقال خميّس:

- مالك يا مختارا شايك بدون سكر.

فردّ عليه مختار متهكمًا:

- هل تمدّنَ بلعومك إلى هذا الحدّ؟!

وصاح صالح:

- الأمر كما قال خميّس. الشاي مرّ جدًّا.

فقال مختار:

- يظهرأنكم تعشيتم تمرا. كأس الليلة ككأس البارحة... على كل حال ستعوّضون ما فاتكم في الدّور الثاني.

وتجرّع الرّفاق كؤوسهم على مضض مخافة أن يغضب مختار، فمختار هو مدير الشاي بلا منازع. وكان لمهاراته في طهيه وإتقانه لصنعه ما جعله يكسب دالة على رفاقه؛ فيتقبّلون كل ما يبدو منه دون جدال. ولم يكن عبد الله ليشذّ عن السُّنة فاحتسى كأسه دون أن يبدي أيّ اعتراض. وفي الدّور الثاني كرّر مختار مع عبد الله ما فعله بكأسه الأولى. وما إن أتم عبد الله ارتشافها حتى أحس بنشوة تسري في جسده كلّه. وانطلق يتحدّث بطلاقة غير معهودة فيه. وأصبح يستجيب للضحك بأدنى سبب. وتبادلت الجماعة الغمزات والنظرات. وأيقن

محمود وإبراهيم أنّ مختارا شرع في تنفيذ خطّته خصوصا بعد أن وزّع على الجماعة سقائر ممزوجا تبغها بالتكروري. وكان نصيب عبد الله من ذلك نصيب الأسد، فطفق يضحك مغرقا في الضحك. ثم رفع صوته يغنّي:

بخنوق بنت المحاميد عيشهْ

ريشه بريشهْ

عامين ما كمّلوش النّقيشهْ

وردّدها معه الرفاق ضاحكين مصفّقين. فازداد هو حماسا واندفاعا، وازدادت الجماعة له تشجيعا وإغراء. لقد سرّهم أن يروا عبد الله مسطولا لأوّل مرّة بعد أن طال تمنّيهم أن يشاركهم فيما يصنعون من قبل فلم يصلوا معه إلى مراد.

لم يكتف عبد الله بترديد مطلع الاغنية. بل نهض يرقص، وقد أحاطت به الجماعة حلقةمتماسكة الأطراف، بينما تبدّت له صورة عائشة ضاحكة راقصة تحت شجرة التوت ترتفع يداها فوق رأسها فتتشابك مع الأغصان، ثم تنسدل إلى أسفل في حركة خفيفة رشيقة. وتمادى يرقص ويرقص باذلا جهده، مرهقا نفسه، حتى وقع على الأرض باكيا متأوها، فأسرع محمود يُريق على وجهه ماء باردا انتفض له عبد الله مرتعشا، وانتصب واقفا. وعاد إلى مكانه في شيء من الحيرة والذهول.

وجاء مختار يوزع الدّور الثاني من السقاير فأعرض عنه عبد الله، والتفت إلى خميّس طالبا منه سبسي «التكروري».

ظن خميّس ـ أوّل الامر ـ أن عبد الله يمازحه؛ فلم يقدم له السبسي. إلاّ أن نظرات عبد الله الملحّة جعلته يوقن بأن عبد الله جادّ في طلبه، فناوله إياه، وهو لايكاد يصدّق ما يرى.

أمسك عبد الله بالسبسي وجذب منه نفسا طويلا اختزنه في صدره ثم أخرجه من منخريه دخانا أقوى وأغزر من بخار غلاّي الشاي حين يشتدّ غليانه. وقبل أن يُعيد «السبسي» إلى خميّس وضع «المبسم» في فمه والتفت إلى الشمال. ثم نفخ فيه بقوة فاندفعت بقية التكروري جُميرة ملتهمة وقعت على الأرض سرعان ما تلاشت إلى نقطة صغيرة من رماد. ونفخ فيه ثانية. ثم أعاده إلى خميّس. وأحسّ عبد الله بغثيان فأغمض عينيه لحظة ثمّ فتحهما. وحلق في الجماعة، فارتاع وفزع ... مالهم! ما بالهم! لقد جلسوا على رؤوسهم!.. فانبرى ضاحكا، وقال:

ـ قبّحكم الله! لقد غيّرتم سنّة الكون... اجلسوا كما يجلس النّاس.

فصفّق له الإخوان وردّدوا بصوت واحد:

افتح عينك يا مزطولْ

كان يجيك الدبّ الغولْ

وفتح عينيه بعد أن هزّته كلمة «مزطول» هزا شديدا فرأى الاخوان في جلسة عادية مستقيمة فابتسم في خجل وعرف أن نَفَس «السبسي» أثّر فيه ولعب بفكره وبصره. إلاّ أنّه في الوقت ذاته ألحّت عليه رغبة قويّة في الازدياد، فالتفت ثانية إلى خميّس، ونظر إليه نظرة استعطاف. وتخابث صديقه فأشعل «السّبسي» وجذب منه نفسا عميقا. ثم أخرجه دخانا، علبوبا قويا، في وجه عبد الله فامتلأت خياشيمه بالدّخان وغاب وجهه في سحابة بيضاء ارتاح لها، وشعر بدعابة لذيذة في وجنتيه وأذنيه وبرائحة ذكيّة تملأ خيشومه، وقدّم إليه خميّس «السبسي» فتلقّفه بيد ظامئة وجذب بقيّة ما فيه. وإذا رأسه أثقل من دلاّعة؛ فأسند رأسه إلى كفّه وأخذ يغمغم بكلمات غير مفهومة. إلاّ أنّها كانت في نغمة «بخوق بنت المحاميد عيشه»

وصاح عثمان يستحثّ مختارا ليأتي بمعجون السفرجل والحلوة الشّاميّة:

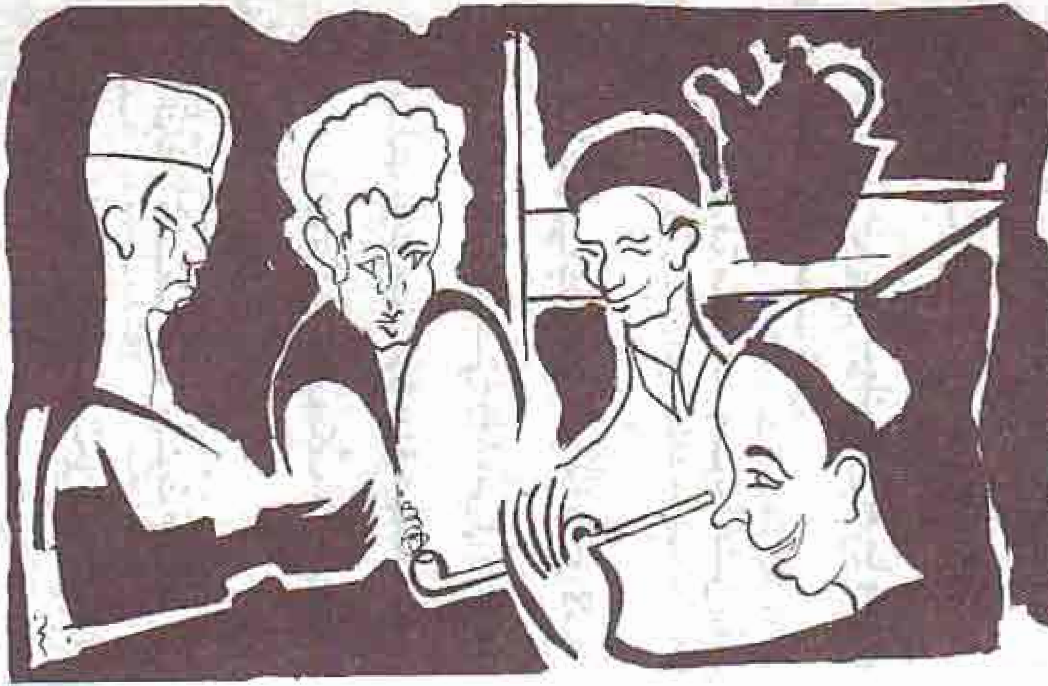
ـ يلّه، يا مختار الغول! المعجون!.. المعجون!..

فأجابه مختار من بعيد:

ـ عجن الله رأسك.

فقال خميّس هازئا:

ـ دعاء مختار كدعاء النّساء.



أمسك عبد الله بالسبسي وجذب منه نفساً اختزنه في صدره

وعقب عثمان مؤيّدا:

ـ هل كان ذلك من ملازمة الكانون؟

فقال خميس همسا:

ـ اخرس، يا أحمق. لو سمعك مختار لحرمنا بقية السهرة؛ كلّ شيء مقبول إلاّ أن يغضب مختار.

ومن خارج الغرفة صدح مختار بصوته الخشن يردّد في لحن «العروبي»:

طلّيتْ ملْبَاتْ رِتْنِي ضوا خدها برق لامح
ردّتْ البابْ وما كلْمتني وجدّدتني في النوايح
يا ليتها الموت جتني وما قعدت للفضايح

فصاح عبد الله متأثّرا. وضرب بكفّه على صدره، واندفع يغنّي:

التُوتْ يَا مَطْعَمِ التُوتْ والتوتْ عقّبْ مرَارَهْ
على خاطْرَهْ نحْرِمْ القُوتْ ونْجَلِ لبْرْ النْصَارَهْ

ثم زاد

يا حُبْ قدّاشْ مِسْكِينْ مريضْ الهَوَى ما يْعاني
النّارْ في وسْطْ لِكْنِينْ والقلْبْ مغْدوم فانِي

فمال محمود على ابراهيم. وهمس في أذنه:

- هل سمعت المقطع الأخير من قبل؟

- أبدا، والله.

- أعتقد أنَّه من تأليف عبد الله، بل أقسم على ذلك

- عبد الله يكره الحب وينفر منه؟

- خرافة! كذب! إنَّه عاشق ولهان. كان يُخفي حبَّهُ عنّا.

- التّكروري كشَّاف الأسرار، يا إبراهيم.

- غريب والله!.. أكاد أصدِّق ما تقوله، يا محمود.

لكن حذار أن يثار الموضوع الآن. أوْصِ الجماعة بذلك.

***

مضى أكثر الليل، والرّفاق في اللّهو والمرح. ثم شرعوا في مغادرة المكان واحدا بعد آخر. وعندما جاء دور عبد الله في الخروج حيّ بقية الرّفاق في لهجة يغلبُ عليها الاسترخاء والدّعابة، ورجلاه تلعبان «اللام ألف». وما إن تجاوز عتبة الباب حتى رجع مرتجفا، معقود اللِّسان، يشير إلى الرّفاق

بالصّمت والسُّكوت ؛ فهرعوا نحوه يستوضحون منه جليَّة الامر بعد أن هالهم ما هو عليه من فزع ورعب . وبعد لأي ، قال يخاطبهم :

ـ ثعبان!!! يا لطيف!!! اخرجوا ... حَنَش كبير يسدّ منافذ الطَّريق . سارعوا ... هاتوا ما عندكم قبل أن يهرب الخبيث .

وكانت الشَّائعات التي أكلت مسامع القرية ـ منذ أسبوع ـ تؤكِّد أن «هامَّة» عظمى ظهرت بالوادي المجاور . وأنّها اعترضت لمصطفى الهرقام وكادت تقضي عليه . وعندما افتقدت الخالة مبروكة جَدْيَها غلب على الظن أن الثعبان هو الذي ازدرده .

وجاء فزع عبد الله مصدّقا لتلك الشائعات فاستولى الاضطراب والهلع على رفاقه ، وسادهم الوجوم ، ثم أخذ بعضهم يشجع بعضا ، فانبروا يتسلَّحون لمقاتلة الثعبان : هذا حمل هراوة غليظة . وهذا تأبّط حجرا . وأمسك الاخر بقادوم . وشهر ذاك منجلا مكسورا ... وخرجوا إلى الشَّارع ليقتلوا الثعبان ... انتشروا هنا وهناك ... جرى بعضهم إلى نهاية الطَّريق حتى دخل ساحة القرية ... أين الثعبان؟ . لا أثر له! . هل ابتلعته الأرض؟ . .

وعاد الرفاق الى البيت ، وقد ازدادوا شجاعة وإقداما . وفتّشوا

عن عبد الله! وإذا هو وراء الباب ملتصق بالحائط يقرّب عينه من شقوق الباب ثم يتراجع خائفا، مشيرا بسبّابته إلى ذلك الأسود الممدّد بعرض الطّريق! . وانتبه الرفاق إلى سرّ خوف عبد الله فتصايحوا ضاحكين. لقد عرفوا سرّ الثعبان! إنّه جذع النخلة في ضوء القمر قطع الطريق بظلّه الممدّد الطّويل... لكن نظر عبد الله المسطول تصوّره هامة عظمى وثعبانا مخيفا.

لم يستغرب الرفاق موقف عبد الله ولم يدهشوا. إنهم يعرفون الكثير من هذه النوادر المضحكات تحصل لمن يتعاطى حشيشة «التكروري». لا سيما أولائك الذين ما يزالون في بداية الطّريق. ولم تكن نادرة عبد الله إلاّ نكتة جديدة تضاف الى مئات النكت أمثالها يتندّر بها الرفاق حين يخْلو لهم الجوّ ويستعذبون التنكيت، وتستهويهم الملح.

وخاف ابراهيم أن يحصل لعبد الله مكروه في الطّريق إذا عاد وحده إلى المنزل، فرجا من محمود أن يرافقه. وألا يتركه إلاّ بعد أن يدخل الدّار ويغلق الباب وراءه. وكان إبراهيم يخشى أن يفتضح أمر عبد الله لدى أسرته المحافظة فتكون المصيبة أدهى وأعظم.

ونهض عبد الله ليعود إلى منزله صحبة محمود. ولكن ما إن

تخطّى عتبة الباب حتى جلس على الأرض ودسَّ رأسه بين ركبتيه . وصاح مذعورا: الثعبان! . . الثعبان! . . الثعبان! . . وبذل محمود جهده ليزيل عنه الوهم والرعب فلم يفلح . وتمنّى لو تمر سحابة فتغطّي وجه القمر وتزيل هذا «الثعبان» من الطّريق . ثم ذهب إلى ظلّ النخلة يرفسه برجليه ويطلب من عبد الله أن يفتح عينيه مليًّا ... أمّا عبد الله فكان يحذّر محمودا من الاقتراب، وينذره من خطر الثعبان وسمّه القاتل حتى إذا ضاقت الحيل بمحمود رجع بصديقه إلى المنزل واستنجد بالإخوان ليبعثوا فيه الاطمئنان وينسى هذا الخطر الموهوم . لكن بدون جدوى! عبد الله ما يزال مصرًّا على وجود الثعبان . كان يرتعد خوفا . كان يصيح ؛ كان يتأوه أسى وحسرة على فقد السلاح الفتّاك ...

« ... آه، آه. يا إبراهيم . لو كان عندي موزر أو قربيلا! . . إنّها الهامة التي ابتلعت جدي خالتي مبروكة... مسكين مصطفى الهرقام... معه حق، يا جماعة! إذا بكيتم على شيء فابكوا على السلاح ... »

وبينما إبراهيم ومختار تعلوهما الحيرة كان مختار يشدّ بطنه من كثرة الضّحك حتى وقع على الأرض عدّة مرات . واغتاظ إبراهيم من موقف مختار، فقال له متوسّلا:

ـ بالله عليك، يا مختار، خلّصنا من هذه الورطة .

ـ أمر مولاي السلطان مطاع .

ـ لا سلطان ولا شيطان ، الفجر على وشك البزوغ ، يا مختار.

ـ لو طلع الفجر لاسترحنا ... يخفت ضوء القمر ويختفي الثعبان .

ـ بل قل لو طلع الفجر لافتضحنا .

ـ اطمئن يا مولاي! . . سأطلع لكم الشمس الآن. لا تخافوا . أنتم من ينطبق عليه المثل « ... يسكر من زبيبه» .

وغاب مختار ربع ساعة ، والجماعة على أحرّ من الجمر. ثم جاء ، وتقدم من عبد الله يلاطفه ويقول له:

ـ اسمع ، يا عبد الله ، ما عندك إلاّ الرّجال ، يلّهْ ... قم معي .

كان مختار قد جمع كثيرا من القش ووضعه بالشّارع حيث يمتدّ ظل النخلة ، وأراق على القش صفيحة من النفط وقال لخميّس :

ـ عندما نقترب من الباب أشعل النّار في القش . وتعال مسرعا لتخبرنا بأن الثعبان التهمته النّار.

وانطلت الحيلة على عبد الله فاعتقد أن الثعبان التهمته النّار فخرج متسلّلا لا يكاد جسده يفارق الحائط ، ضاغطا بكل قواه على يد محمود ؛ يرفع رجلا ويحط أخرى في حذر شديد كأن



لقد عرفوا سر الثعبان. إنه جذع النخلة في ضوء القمر

الطَّريق مفروشة عقارب أو زجاجا ومسامير. وقطع مسافة طويلة من الطَّريق؛ وهو ما يزال في عالمه الضبابي المسحور... ما يزال في ليله الدّامس المخيف!.. توقَّف عن السَّير عدّة مرّات... حاول أين يعود الى الرفاق لينتقم من الثعبان فيرتعد من جديد... ويتذكر الثعبان الذي تركه وراءه فيسرع خطاه ويجرّ معه محمودا بقوة... ثم يقف... يتردّد... يجهش بكاء... يضحك أحيانا.

وابتسم محمود مرّة أخرى!...

وقف عبد الله وشرع في نزع ملابسه ليعبر عاريا هذا النهر الممتلىء ماء الى حافتيه!.. إنَّه ضوء القمر تسلَّل إلى الزقاق من فجوة بين ساباطين!...

وخاض محمود هذا «النهر»! بملابسه! فرجع الى عبد الله قليل من رشده وسار ملتصقا بمحمود مطرقا حزينا...

أخيرا وصلا المنزل. وخشَّ عبد الله من خوخة الباب وصفقها وراءه فتنفَّس محمود الصعداء. وحثَّ خطاه راجعا الى ابراهيم لينال حظَّه من الراحة والنوم بعد أن يقص عليه طرائف عبد الله في الطَّريق.

عندما دخل عبد الله المنزل شعر بجوع شديد فذهب رأسا إلى المطبخ عسى أن يجد ما يكسر به حدّة هذا الجوع. وكان المطبخ

في ظلام دامس زادتـه جدرانه المسـوّدة ظلمة وحلكـة فمشى فيه يتحسّس بيـديـه كالأعمـى. وعثر في قصعـة ملقـاة على الأرض فكاد يصدمـه العمود ويدمغه... وبعد مشقّة عثر على ضالّته، طـاجين كبير مغطّى بكسكاس؛ فـانـدفع يأكل ما في الطّـاجين بنهم وشهيـة. حتّى إذا ثقلـت معـدتـه تسلّـل من المطبخ إلى غـرفته، وارتمى فـوق الفـراش طلبًا للنـوم. لكن عبـد الله لم ينعم بـالنّـوم تلك اللّيلـة... لم يأكل لحما نيئا هــذه المرّة. ولم يأكل كسكسيا.. كان في الطّـاجين شيء آخر كـاد يقضي عليه لـو لم تسعفه معدّته فلفظت ما أكله وقاءته...

كان في الطّاجين طين أحمر منقوعا.

بـدت له القـرية في صفـرة الموت، ورجرجـة الموج. . . حتى الماعـز المنطلق إلى المسرح كـان غير متـزن الحركـات. . . السَّماء رغم صفائها تبدو مخطَّطة بالسواد.

وأحس بغثيــان عنيف فأسنـد ظهـره إلى الحائط. ثم جلس على صخرة قريبة منه:

«. . . غريب أمـرك، ياعبد اللّـه! . . القريـة سعت كلُّها إلى الرّزق. . . أيقظتني المسكينـة، وهي ملتاعـة. . . لم تعلم أن ما أكلته كان طينا. . إلى متى وأنـا أنافق هذه الأمّ؟ . . أشفقت عليّ فلم توقظني مبكّـرا بعد أن رأت من حالتي ما رأت. . . تُـرى ما يكون موقفي مع سي الحمـروني؟ لقد استبطأني دون شك. . . لم يرسل ورائي أحـدا. . . لعلّ الغضـب بلغ بـه منتهـاه. . . هل أصــارحــه؛ . . . لا. . إنّها صـدمــة. . . ســوف لا يكتم الخبر. . . وهل تبقى لـديـه ثقـة؟ . . لا. . لايمكن. . . على كلّ حال. . إنّه موقف. . . »

كان أبـوه ما يـزال يتلو الأدعيَـة التي اعتاد عبـد الله سماعها منـه إثـر كل صـلاة. . . وأجهـر الوالـد بـالقـول: «. . . وما ظلمناهم ولكن كـانوا أنفسهم يظلمون. . . » فـاصطكّت أذنا عبد الله للآية القرآنية، وارتعـدت فرائصه؛ فقد انتصبت أمامه مشـاهد الليلـة الماضية بكلّ مـا فيها، فـاستعاذ من الشيطـان ووقف في السقيفة المظلمة متردّدا.

«. . . هل يتخلّف الليلـة عن الـرفـاق؟. . يتركهم وشأنهم لكنّهـا القطيعـة من إبـراهيـم وصحبـه. . . لا. . . هـذا لا يجوز. . . لا يمكن. . . إنّـه معـروف بـوفـائه. . . ولماذا الجبن؟. . لماذا لا يجابههم بالصّراحة؟. . لقد نصب لـه مختار فخّـا فـوقع فيـه. . سـوف لا يشرب معهم الليلـة ولـوجـرعـة مـاء. . . عليـه أن يلتحق بهم، يعنّفهم، يلـومهم. ثمّ يعـود أدراجـه إلى المنزل. . . وليكن مـا يكـون. . . حسبه أن يـرضي ضميره. . . أمـا مـوقف الجماعـة منـه. . . أمّـا رد الفعل من جـانبهم فـأمـر لا يهمُّـه. . . المهم أن يكـون صريحا، شجاعا. . . »

وانحنت قامته قليلا ليجتاز خوخة باب المنزل، فتلقته هبّة بـاردة من ريح الشّمال لم يتعـوّد أن يلقاهـا في هـذا الفصل من الربيع. وتثاقلت خطاه في الطّريق:

«. . . ليكن على رويّة من أمره قبل أن يصل المنزل الذي يسهر فيه إبراهيم وحاشيته. وتوقّف مرّات عن المشي. . . لقد راودته فكرة!. . فكرة التجربة. . . لماذا لا يقدم هذه الليلة طوعًا منه على مشاركة الرفاق في تدخين «التكروري»؟ إنّه سيزداد معرفةً بأسرار هذه الحشيشة. . . سيزداد اختبارا لتأثيرها في العقول وتخديرها للأعصاب. . . سيزداد إمعانا لِمَا تصوّره من خيالات وأوهام، حتى إذا ناقش في شأنها، أو جادل في أمرها كان على بيّنة أتم وحجة أقوى. . . وظل يتردّد. . . لا. . . لا. . . هذا لن يكون!. . إنّه الشيطان يزين السوء!. . إنّها الشهوة تدعو إلى الباطل. . .»

وهمّ بالعودة من حيث أتى. . . كان يخاف أن يغلبه هواه فينقاد إلى شهوته. . . وطال به الصراع والتّردّد. ثم صمّم على الذّهاب إلى الجماعة ومجابهة الموقف بالجلد والحزم. وتردد مرة أخرى أمام باب المنزل. . . ثم امتدّت يده مرتبكة إلى الباب وطرقه طرقا متواصلا، فسمع صوت مختار يصيح من الداخل.

ـ على مهلك. . . الشاي فوق النّار أخشى أن يحترق.

فقال محتدًّا:

ـ حرق الله كبدك، يا شرّير.

ولم يسمع مختار شتيمته فأقبل، وهو يترنَّم :

«بخنوق بنت المحاميد عيشه ريشه بريشه»

وفتح مختار الباب . فلمّا رأى عبد الله صاح مهلّلا . ودخل يجري إلى الرفاق يخبرهم بقدومه، فعلاهم الضجيج والتَّصفيق. وتسابقوا إلى اقتباله كأنَّه غاب سنوات عديدة. لكن عبد الله صدمهم بوجهه المتجهِّم، وغضبه الواضح، فدهشوا لمرآه، وغشيهم الصمت. وحاول مختار أن ينقذ الموقف، ولو بدعابة على حساب عبد الله، فقال يخاطبه :

ــ لابدّ أنّك ستفاجئنا بجديد في هذه الليلة . . . يلَّهْ، ياعزيزي، شنِّف الاسماع بصوتك الرنَّان.

إلاَّ أن عبد الله لم يستجب لإثارة مختار، بل لبث صامتا واجما يصوِّب بصره ويصعِّده في هذه الوجوه المألوفة عنده، لكنّها بدت الليلة أكثر إيحاء مما كانت عليه. وعادت به نظراته إلى عهد طفولته، أيّام كان مع هذه الوجوه في اللهو البريء، وخلوّ البال، فرقّ قلبه ولان. وعزّ عليه أن يقطع صلاته وماضيه مع أصحاب هذه الوجوه، فتكلّف الإبتسام، ورجا من الرفاق أن يكتفوا بحضوره معهم؛ لأنّه يشعر بألم وصداع.

إنَّ رغبته الملحَّة في مشاركة إبراهيم أفراحه هي التي أجبرته

على الحضور . وتلقّف محمود الكلام، فطلب من الإخوان أن ينصرفوا إلى لهوهم ومرحهم، وأن يتركوا عبد الله وشأنه، فعسى أن يعود إليه نشاطه ويشاركهم فيما بعد.

استأنف الرفاق اللّهو والغناء تاركين عبد الله يسبح في المحيط الذي اختاره، ويحلّق في الجوّ الذي اصطفاه كأنّه لم يكن موجودا معهم. وجاء مختار يطوف بكؤوس الشاي على الإخوان، فلمّا وقف أمام عبد الله لوى هذا كشحه عنه. ثم رجا منه إعفاءه من شرب الشّاي، فحاد عنه مختار، وهو يُخفي ابتسامة ماكرة، ويلوّح بغمزة خبيثة. وبعد توزيع الكؤوس عاد مختار إلى حيث كان يطبخ الشاي، فأنزل الغلاّي من فوق الكانون وحمش النّار بعود أخضر ثم جلس مفكّرا.

«. . . اللّه. . . ما أشدّ بلاهتي! . . صحيح أنا مغفّل. . . عبد الله منكمش. . . منقبض. . . إنّها فعلة البارحة. . . خطتي التي دبّرتُها ضدّه. . . انطوت عليه الحيلة، لكنّني لم أنجح معه كما نجحت سابقا مع الإخوان. . . عبد الله صعب المراس. . . قويّ الشكيمة. . . الامر يحتاج إلى مهارة حتّى يصفو الجوّ على الاقل. . . مهما يكن. . . يجب إنقاذ الموقف. . . آه. . . فكرة! فكرة لا بأس بها. . .»

ونهض يتفقّد حُقّة السكر وقرطاس الشاي واللّوز والبندق. ثم أدخل يده في جيبه ليخرج قرطاس «التكروري».

«... آه رأسي! ... أين القرطاس؟ . وقع منّي ... هل نسيته بدكّان محمود اللّوز... غريب والله. هذه أوّل مرة يحدث لي مثل هذا ...»

ومرق من الحوش كالسهم دون أن ينتبه إليه أحد. وعدا يجري إلى الدكان الذي اشترى منه «قطعيّة» التكروري. فلما اقترب من الدّكان كفّ عن الجري ليزول عنه اللّهاث والنّهجة. وأمرّ يده ـ دون قصد ـ على فخذه الأيسر فسمع خشخشة القرطاس في جيبه فاهتز قائلا:

«... هو أنت هنا... لعنها الله من حشيشة ملعونة. كدت أقع في ورطة مع صاحب الدكّان... محمود اللّوز رجل مشاكس، يسكر من زبيبة ويغرق في الضحضاح... الحمد لله... يلّه يا مختار، عُدْ من حيث أتيت...»

وعاد مسرعا لا يلوي على شيء. ودخل المنزل دون أن يشعر الرفاق بغيابه القصير. لقد أخذ محمد يحيى بمشاعرهم، وهو يردّد أغنية لصالح عبد الحي، فلم يسألوا عن مختار ولم يطلبوا

منه شيئا. وبينما كان الرفاق منهمكين في الاستماع إلى هذا اللَّحن تقدّم مختار من عبد الله وهمس في أذنه:

ـ واحد من أهلك ينتظرك بالباب

فجحظت عينا عبد الله وقال مدهوشا:

ـ واحد من أهلي بالباب!!!

ـ نعم... إنّه في انتظارك.

ونهض مرتبكا، وهو يهمهم: واحد من أهلي! من هو؟ .. هل حصل مكروه؟... هل اكتشفوا أمري؟.. أنا لم أذقها الليلة.

ووضع راحة كفّه على فمه وأنفه، وأخرج نفسا طويلا لعلّه يجد فيه رائحة التكروري. وفي نصف الحوش التحق به مختار، وجذبه من كتفه، وقال له:

ـ لا أحد ينتظرك بالباب. بل أنا تعمّدت ذلك.

ـ إذن هي سخريّة أخرى، يا حمار!

ـ لا تقل هكذا، يا عبد الله. أنا جئت لأعترف لك بخطئي

معك. . . وما فعلتُ هذا إلاّ لأقدم لك اعتذاري عمّا بدر منّي البارحة. . . أنت تعرفني جيّدا. . . قصدي دائما أن نعيش لحظات مرحة في زفاف ابراهيم.

ـ زفاف إبراهيم لا يكون على حساب عقلي وكرامتي، يا قليل الحياء.

واستشاط عبد الله غضبا فرفع يده عالية ليصفع مختارا، لولا أن قدم محمود في نفس اللحظة، وأمسك بيده. وحال بينه وبين ضرب مختار. وقال يخاطبهما :

ـ بالله لاتنكّدا علينا. . . نحن في عرس.

ـ أنا عقدت العزم على ترككم والانفصال عنكم.

ـ هذا قرار خطير. . . ماذا حصل؟

ـ أقول لك صراحة، إنّي غير مرتاح إلى هذه الهُوّة التي أشرفتم عليها. . . ساخط على تعاطي هذه الحشيشة الملعونة. . وبكلّ أسف تآمرتم عليّ كلكم ليلة أمس حتى فقدت عقلي.

فتداخل مختار بقوله :

ـ أقسم لك، إنّني ما قصدت سوءًا بك . . . كانت غايتي الدُّعابة البريئة.

فقال له عبد الله :

ـ أنت تعلم موقفي من دعابتك، ومن هذه الحشيشة.

وأجابه مختار ا في لهجة منكسرة:

ـ صحيح والله! ... أنا غلطت ... أعتذر بكلّ إخلاص، بكلّ ندم. . أعاهدك على عدم العودة... توبة ... توبة ... والله.

وقال محمود :

ـ يبدو أنّنا وصلنا إلى حلّ الآن. . . وعفا الله عمّا سلف. . . يلّهْ. . . لندخل قبل أن يعلم إبراهيم فيغضب.

ـ وصلنا إلى حل! أبدا. . . موقفي ليس هذا. . . القضيّة ليست قضيّة مختار و عبد الله. . . إنّها أبعد وأعمق. . . لعلّه من الخير ما حصل ليلة الأمس. . . لقد لمست فعْلاً ضرر هذه الملعونة. . . إن غضبي يتناول القضية من أساسها. . . لماذا نسير إلى الهاوية؟! شبابنا يندفع مطواعا إلى هذا المخدّر. . . مساكين أولائك الذين يدّعون أنّنا مقبلون على

الثـورة. . . هل نُقبل عليها بـالشباب الأرعن؟. . . هل نقـابل القوى الغاشمة بالعقول المخبولة والصدور المنخورة. . هه .

ـ يكفي، يـا عبـد الله. . . لقـد مـزّقت نيـاط قلبي! هل تصدّقني؟. . إنّني معك مائة بالمائة . . . كنتَ تعبّرُ عن كل ما أشعر به. . . لكن. . .

ـ لكن! ماذا؟

ـ الأمر يحتـاج إلى رويّة، إلى إمعـان نظر. . هل تظن الأمـر على درجة من السُّهـولة. . . لندع الأمـر الآن حتى ينتهي زفاف إبراهيم. . . منزلة إبراهيم معـروفة لدينا جميعا. . . أنت تعرف أنّـه حسّاس جـدّا. . . خذْ منّي عهـدا، يا عبـد الله. . . إنّني سأكون بجانبك في هذه القضيـة. . . يلهْ. . . يلهْ. . . لندخل قبل أن يشعر الاخوان.

وعقَّب مختار على كلام محمود :

ـ مدّ يـدك، يـا محمـود. . . أقسـم بـالله العظيم، إنّي مـا قصــدت ســوءًا ب عبـد الله. . . لست أدري كيف أقنعـه بذلك. كيف أستطيع التكفير عن هذه الهفوة؟!

وظهر على مـلامح عبد الله بعض الارتيـاح لما سمع، فوافق

محمودا على العودة إلى الرفاق. وانتهز مختار الفرصة فارتمى على عبد الله يحتضنه ويقبّله ويرجو صفحه. ودخل ثلاثتهم يقضون بقيّة السّهرة مع إبراهيم وبقيّة الأصحاب.

«... هل يفي محمود بعهده؟ هل يصدق في كلامه؟ .. لقد قال: إنَّه معي مائة بالمائة ... شيء عظيم ... لكنَّه يدعو إلى التأنّي والتَّروي ... ما معنى هذا؟ بعد زفاف إبراهيم سيكون بجانبي ... ربما ...»

وسدّت منافذ الباب جثَّة ضخمة فكادت تحجب الضوء عن الدكّان فرفع عبد الله رأسه

«... هَهْ ... دادا مسعودة واقفة بالعتبة ... ما الذي جاء بها؟ .. علامات الانقباض تبدو عليها ...»

ـ الله يعينك، يا عبد اللّه.

ـ الله يسلِّمك، دادا مسعودة، يا مرحبا بالخطى المباركة .. كيف الحال؟ .. تفضَّلي.

ـ الحال، يا عبد اللّـه! .. الله يقدّر الخير... ماذا أقول

لك؟.. جاء الخبر من تونس أن الصادق بالحاج الحبيب مريض في حالة ... أدخلوه مستشفى «الرابطة» ...

ــ ماذا؟.. خبر مزعج، يا دادا!.. هل سمع محمود الخبر!.. غريب! كان معنا البارحة ... ألم يكن على علم؟

ــ محمود! أين محمود الآن؟. لعلّه قطع نصف الطَّريق.. أنتم البارحة في الزهو والطَّرب... أمّا نحن فكنّا نتجرّع لغصص والأحزان ... لكن أم محمود أقسمت الا يسمع ولدها الخبر حتّى تنتهي السَّهرة مع إبراهيم... إنّها تحبّ إبراهيم... هو في منزلة محمود... كثر الله من أمثالك، يا أمّ محمود ... ربّنا يعجّل بفرحتك...

وغابت دادا مسعودة... طافت على كل الدّكاكين... دخلت المقهى... أخبرت كل القرية بمرض الصادق بالحاج الحبيب، وبسفر ابنه محمود إلى تونس... دادا مسعودة نشرة إخبارية محلّيّة... تطوّعت منذ أن مات زوجها للقيام بهذه المهمة... تدخل كل منزل، تكلّم كلّ واحد... إنّها المرأة السافرة في القرية... جاءت مع قافلة تجاريّة من فزّان... وانتهى بها المطاف في الجنوب التونسي... هل صحيح أنّها مسروقة؟ اختطفت من أحضان أمّها الزنجيّة؟.. كلّ ما يعرفه أهل القرية عنها أنّها من بلاد السودان. وأن الشيخ رمضان جاء بها ذات

سنة إلى القرية وأنزلها بيته . . كان الشيخ رمضان عطوفا عليها ... أحسن تربيتها ، وأنساها كل شعور بالغربة . حتى إذا أصبحت في سنّ الزواج زفّها إلى «بابا مسعود» كما تزف بنات القرية أو أحسن ... لقد فضّل الشيخ رمضان أن ينفق على زواجها كلّ المال الذي جمعه بقصد أداء فريضة الحجّ . . . وتجادل أهل القرية أيّاما وليالي حول ما صنعه الشيخ رمضان ... كان إمام القرية بجانب الذين يرون أن ما صنعه لا يقلّ أجرا عن أداء فريضة الحج ... ورغم ذلك ظل فريق آخر لا يرتضي ذلك الصنيع ... إن الحج عندهم مقدّم على كل شيء سواه ، حتّى لو باع الإنسان في سبيله أعز مكاسبه أو أثقل كاهله بالدّيون .

وسُدّت منافذ الدّكان مرّة أخرى ، فأفاق عبد الله من ذهوله الذي ران عليه منذ أن أخبرته دادا مسعودة بسفر محمود إلى تونس .

«... محمود سافر! . . قالت دادا مسعودة إنّه لن يبطىء بالعودة حالما يتماثل أبوه من مرضه . . أعماله الزراعية لا تسمح له بطول الغياب . . ولكن! . . ما تعاهدنا عليه ... ما مصيره؟ ... »

مرّت الاسابيع دون أن يعود محمود إلى القرية . لقد طال غيابه أكثر ممّا قُدّر له! فابتدأ عبد الله يشعر بالفتور وقلّة الحماس لما وقع عليه الاتّفاق بينه وبين محمود .

«... أحمد الحنّاشي غاب هوالآخر... هو أيضا ذهب إلى تونس للعلاج والفحص... عضّه أحد كلابه وخيف أن يكون الكلب مريضا... في معهد باستور يعالجون داء الكَلَب... كل من عضّه كلب تعْطى له تذكرة سفر مجانا ذهابا وإيابا إلى تونس... لم يصدق النّاس أن أحمد الحنّاشي عضّه كلب من كلابه... يعتقدون أنّها حيلة استعملها. وانطلت الحيلة على المستشفى الجهوي بقابس... غبطه الكثير من سكان القرية على سفرته المجانية وعلى إقامته بتونس عند أخيه أربعين يوما يأكل ويشرب بالمجان أيضا...»

واطمأن عبد اللّه. إنّه استراح من منظره ورائحة كلابه ومن ثرثرته. وجاءته فاطمة بالعشاء. كان العشاء «ملثوثا» برأس الخروف... أمّه تجيد طبخ الملثوث بالرأس، فنشأ محبًّا لهذا النوع من الكسكسي.

أخته فاطمة تعرف عنه هذه المحبّة فأقبلت عليه تسأله رأيه في عشاء الليلة.

ـ هو دائما طيب حتى لو أكلته باستمرار.

..ـ أمي خشيت ألاّ يعجبك لأنّها طبخته على عجل.

ــ طبختــه على عجل!.. وأنت مـاذا كنت تصنعين؟ ألا تريدين أن تكوني طبّاخة ماهرة مثلها؟

ـ أمي أرسلتني إلى السّانية... أعطتني لحما حملته إلى عائشة وأختها.

«... عائشة لم تأت من زمان إلى الدّار... لماذا انقطعت عن الزّيارة؟.. فاطمة تعرف السّبب.. لم تحدّثني عنها منذ عهد بعيد...»

ـ من زمان طويل لم تحدّثيني عن صديقتك عائشة... يبدو أنّها لم تعد تزورك مثلما كانت تفعل من قبل!..

ـ أنا دائما أدعوها، وألحّ عليها... لكنّها تعتذر كلّ مرّة، وتبدي أسبابا مختلفة.

ـ هل حدث بينكما ما أساء إليها؟

ـ أبدا... إنّنا في غاية الودّ والصفاء ورأس أبي وأمي.

ـ لا أصدّق... يبدو أن شيئا حصل بينكما.

ـ بالعكس... أمّي ما فتئت تذكّرني بدعوتها... أمس كذلك كنت عندهم. حملت إليهم «مشرب» لبن.

ـ والدها لم يأت إلى الدكان منذ أيّام.

ـ آه!.. نسيت... أبوها مريض لم يغادر الكوخ منذ أسبوع.

«... الشيخ مفتاح مريض... مريض!.. فكرة!.. لماذا لا أعوده في كوخه.. في السانية... غدا الجمعة... بعد الزّوال لا

واخترق الزبائن المزدحمين أمام الدكان وشقّ طريقه إلى داخل المتجر. ثم اندفع يساعد «عرفه» الذي بادره بقوله:

ـ أين أنت، يا عبد اللّه؟ المانع خير إن شاء اللّه.

ـ إن شاء الله خير، يا عمّي... أصبحت مريضاً... المعذرة. كانت ملامح وجهه تؤيّد قوله. فأشفق عليه السيّد الحمروني، وطلب منه أن يعود إلى المنزل مخافة أن يشتد به المرض. إلاّ أن عبد الله أجابه بقوله:

ـ بارك الله فيك، يا عمّي. لا داعي إلى ذلك. إنّه صداع خفيف يزول بحول اللّه.

وأطرق برأسه. ثم انهمك مع الحرفاء والزبائن. ولم يمض وقت قصير حتى قضى لكل زبون حاجته، وانفرجت الزّحمة التي كانت تسد باب المتجر.

ظلّ السيّد الحمروني ينظر إلى «صانعه» عبد الله بعين مملوءة بالمسرّة والانشراح...

كان مأخوذا بحركاته الخفيفة السّريعة، وهو يؤدّي عمله التّجاري: حين يقطع الخبز أو يقصّ الصابون... حين يزن الشاي أو السكّر أوالمقرونة... عندما يقبض ويدقق في الحساب، أو عندما يعيد الى الزبون ما بقي له من

«الصرف». . . إن رشاقة عبد الله وخفّته ونشاطه هي سرّ نجاحه. . . هي مبعث إعجاب «عرفه» به كصانع ماهر. وهي مبعث إعجاب الحرفاء به كتاجر حسن المعاملة، صادق القول. . .

ولم يكن إعجاب السيد الحمروني بعبد الله يقف به عند تلك النظرات وذلك الإكبار. إنّما كان يقرن إعجابه بالدعوات الصالحة سرّا وجهرا، ويتلو التعاويذ و«المحصّنات» لتبعد عنه كل مكروه. . . شأنه شأن زوجته التي لا تني «تحصّن» عبد الله بالرّقى والحروز. بل كانت تعطي لزوجها بين الحين والآخر كميّة من «بخور الأشفاع» يرمي بها في الكانون ليحرق قلوب الحسّاد ويزكم أنوفهم. . . إنّ «بخور الأشفاع» الشافي العافي! لا يغيب عن صندوق زوجة السيّد الحمروني؛ ففي كلّ سنة تدخّر منه مقدارا كبيرا يكفيها طول السنة، وتعطي منه كلّ من تحتاجه من نساء الحي. . . وهي حريصة كلّ عام على جمع «صرّة» كبيرة منه تضعها في محراب المسجد الجامع أو تحت المنبر ليلة ختم القرآن في السابع والعشرين من رمضان . . . شيء واحد كان ينغّص عليها عيشها. هو أنّها لم ترزق ببنت تزفّها إلى عبد الله ليصبح لها نعم الصهر في حياته، ولزوجها نعم الشريك في تجارته. .

مرّت كلّ هـذه الخواطر بـذهن السيّد الحمـروني، وهو يتأمّل حركـات عبد الله بين رفـوف المتجر وأيـدي الزبـائن، فنهض الى «درجه» الخاص وأخرج حفنـة من «بخور الأشفاع» وألقى بها في الكانون فتصاعد دخان كـاد يختنق به عبد اللّه، فدمعت عيناه، وتتالت عليه ثلاث عطسات شديدة عنيفة.

***

قضى عبد الله سحابة يومه مهموما، حزينا، سابحا في بُحران متواصل من النّكد والقلق، ولولا أنّـه تعلل بالمرض لأمطره السيد الحمروني بالأسئلـة عن سبب انقباضه وتبرّمه. . . لقـد كره نفسه في هـذا اليـوم. . . لعنهـا عـدّة مـرات. . . رمـاهـا بـالنّزق والطيش. . . فهل نزل بـه التدلّي والانحطاط إلى هـذا المستوى؟ إلى هذا الحدّ. . أن يتعـاطى حشيشة «التكروري». . كـان دائما يعتز بأنّه لم يدخنها إلاّ مرة مغترا. وكان ينصـح أترابه بالإقلاع عنها. . أما بعد تلك الليلة النحسـة فما عساه أن يفعل؟ إنّه سيُلْقَمُ حجرا كلّما دعا إلى مثل ما كان يدعو إليه من قبلُ.

كان كثيرا مـا ضرب الأمثال والشـواهد لأصـدقائه بما وصلت إليـه حال كلّ مـدمن عليهـا. . . في القريـة أمثلـة عديـدة على ذلك: محمـد الصـالح ذهب ضحيّـة «التكروري» تـاركـا وراءه أطفالا يتامى ينهشهم الجوع، ويبذلون ماء الـوجه حصولا على

الصّـدقـات . . . وهـذا أحمد الخنَّـاشي إمعـدود في المجـانين، يعيش مع الكـلاب وللكـلاب، دأبه أن يكـون معهـا في النتونـة ورائحـة الجيف. . . أمَّـا خالـه الـذي مـات مسلولا في ريعـان شبـابه، فإن مـوته مـا يـزال يغشِّي سماء أسرته بسحـابة حـزن لا تنقشع. . . ورغم كل ذلك انـزلق وسقط في الهاوية. فهل كـان ذلك نتيجة مخالطة أهل السُّوء ومعـاشرة المفسدين؟ إنَّه لم يستطع أن يجزم بـذلك. . . لم تطـاوعـه نفســه فيلقي بـالمسـؤوليّـة على أصدقـائه. . . أصدقـاؤه ضحـايـا. . . ضحـايـا هذه العـادات الملعونـة التي سنتهـا تقاليد حفـلات الأعراس. . . أن يتعـاطى الشباب في تلك المناسبات حشيشـة «التكروري» ويدخِّنوها. . إن أكثر الشبـان لا يعـود إليهـا فيما بعـد. ولكن البعض منهم يدأب عليها حتى تتمكن منه العِلَّة الخبيثة.

وتلاحقت بعبد الله الهواجس دون أن ينسى نفسه.

. . . إنَّها أحق باللَّوم وأجدر بالتعنيف. . . رفاقه أصدقاء لا يريدون بـه الشرّ أو سوء العاقبة. . . كان يلازمهم منـذ أن كانوا أطفـالا؛ أقصى إدراكهم للحياة أنّها لعب وأكل. . . يأكلـون في البيـوت ويلعبـون في الشـوارع والسـاحـات. وحينما أدركهم الشبـاب أدركتهم معــه تلك العــادات والتَّقـاليـد. . . إنَّهم ضحايا. . . ضحايا تلك العادات والتَّقاليد!

وخفَّت وطأة الزبائن على الدكَّان بعد الظُّهر فعاد السيِّد الحمروني إلى منزله. وبقي عبد الله وحده في المتجر. وجاءت أخته فاطمة بالغداء. كان «محمَّصا» بالقديد والوزف والفول، تبعث أبزاره برائحة ذكيَّة فوّاحة. فتناول الطبق ووضعه فوق كيس الدّقيق. وهمّ أن يأكل: قضم حبسة وأمسك بوزنة. إلاّ أنَّ أضراسه لم تطاوعه على المضغ، وبلعومه لم يساعده على البلع... شعر كأن كظَّة سدّت عليه معدته وأمعاءه... لاكَ الحميسة كثيرا وابتلعها بعسر. ثم وضع طبق «المحمَّص» جانبا وغطَّاه برزمة كاغذ. وعاد إلى السلع يرتبها وينفض الغبار عنها، وإذا أحمد الحنَّاشي يدخل الدّكّان! فاستعاذ عبد الله من الشيطان.

«... الحنَّاشي!.. ضحيّة الحشيشة الملعونة... يدخل الدكّان في هذا اليوم بالذات...»

واقترب الحنَّاشي منه يريد شايا وسُكّرا ولوزا، فصُفع عبد الله برائحته النَّتنة وكاد يصيبه دُوار. إلاّ أنّه ضبط أعصابه، وقضى له حاجته على مضض. وقبل أن يغادر الحنّاشي المتجر التفت إلى عبد الله وقال له:

ـ الله، الله عليك، يا عبد الله القمقوم.. لو لم تكن أنت بالدّكّان ما دخلته قط... أنت تعرف إغراءات المتجر.

الجديد. . . لكنَّني لم أقف ببابه إلى اليوم. . . إن الاخلاق قبل كل شيء. . . الألفة هي السرّ، سرّ الأبديّة والكون. . .

والتفت الى الكلب الذي كان يرافقه، وأدنى فمه من أذنه وقال له:

ـ أليس كذلك يا «مسعود» العزيز؟

ثم ضمّه إليه وقبّل جبهته، وأضاف:

ـ أرأيت، يا سي عبد الله! إنه غزال ظريف، إنّه كلب. لكنّه أشرف من كثير. . . إنّه ألوف لا ينكر الجميل لا يخُون العشْرة. ومع ذلك يقولون: إنّه كلب، ويجعلونه سبّة.

والتفت إلى الكلب وضغط حقريه وسأله:

ـ وأنت! ما هو رأيك يا «مسعود»؟

فبصبص الكلب بذيله، وتثاءب في عمق، محدثا صوتا حادًا كريها اقشعرّ له بدن عبد الله.

واستمرّ الحناشي في ثرثرته:

ـ آه. . . كدت أنسى، واللّه. . . لم تأكل كلابي «مرّاجا» منذ نصف شهر. . . غدا موسم عاشوراء. . . هل آكل أنا الفول ولا تأكل كلابي سمك المرّاج؟! . هذا عقوق. . . جحود

يتنافى مـع الألفة وأهل الإيلاف . . « لإيـلاف قريش ، إيـلافهم رحلة الشتاء والصيف» . . . يَلّهْ . . . يَلّهْ بنا ، يا مسعود .

وانصرف أحمد الحنّـاشي بعـد أن دخل شيخ طـاعن في السنّ واستمع إلى شي ء من «فلسفـة» الحنّـاشي فعقّب الشيخ على مـا سمع بقوله :

ـ أهل العقـول في راحة ، يا ابنـي . رحم الله من قال : تعيش الكـلاب في رؤوس المجـانين . لكن مـا العمل؟ وحشيشـة «التكروري» تباع في الأسواق بإذن الحكـومة؟ . . لا حول ولا قوّة إلاّ باللّه .

وأحسّ عبـد الله كأنّ الـدّم يـوشك أن ينفجـر من وجنتيـه ، فكاد يقع على الارض لولا أنّه بادر بالجلوس على صندوق وأسند ظهره الى الجدار . ثم قـال يخاطب الشيخ في لهجة الملتـاع الحزين :

ـ صدقت ، واللّه ، يابابا . لكن ماذا نفعل؟

فردّ عليه الشيخ ، وهو يؤرجح رأسه :

ــ مـاذا نفعل؟ في إمكـانـنـا أن نفعـل . . . أن نفعل الكثير . . . هل المسؤول عن ذلك غير أنفسنـا؟ لم يجبرنـا الحاكم على تعاطي هـذه الحشيشة الملعونة! . . لم يجعلهـا ضريبة! . . لم

يفـرضهـا . . إنّها النفس الامّـارة، يـا ولـدي. لقـدتغيّر الـزمـان، وتبـدّلت الاوضـاع. . . لم نعـرف هـذه الموبقـات من قبل. . أنت طفل صغير . . . أما أنا فأعـرف. . . لم نعرف هذا الاّ بعدما عرفنا الجندرمي والمراقب. . .

والتفت الشيخ يمنة ويسرة مخافـة أن يسمع كلامـه أحد. ثم أضاف :

ــ يقـولـون : إنّهم جـاؤوا يعلّمـونـنـا، يمـدّنـوننا، لكنّهم يسمحـون بهذه الموبقـات! . . كيف ذلك؟ آخـر زمـان، يا ولدي. . . الله يبقّي علينا ستره.

وخـرج الشيخ يحوقل، وفي يـده أوقيـة زبيب وحقّـة حلـوى «حلقوم».

350 فرنكا.

120 ـ دين في ذمّة الحرفاء.

230 = الصافي بالصندوق.

رك عبد الله يديه، ومسح جبينه في شيء من الاعتزاز
ن رغم التبرّم الذي ران عليه كامل اليوم.

... سيفرح السيّد الحمروني بدخل هذا اليوم... هذا اليوم
ن بالهواجس والزبائن!.. الدّيون هي المشكل الدّائم بيني
سي الحمروني... كيف يريد أن نكسب الحرفاء ونحافظ
؟.. صحيح أن الدّيون بلغت ألفين وتسعمائة فرنك، مضى
البعض منها سنتان دون تسديد... يخلّصها ربّي!... القرية
. والتّجارة هكذا...»

ونهض متثاقلا فـأغلق باب الدكّان متوجّهـا إلى بيت السيّد الحمروني ليقـدّم له الحسابات قبل أن يعـود إلى المنزل. وابتهج السيّد الحمروني بدَخْل هـذا اليوم، فلم يلتفت إلى الدّيون. ولم تبق معـه الصـورة القاتمة التـي انطبعت في ذهنه منـذ الصبـاح عندما أتاه عبد الله متأخّرا، يبدو عليه الإرهاق والمرض.

***

بذل عبـد الله جهده ليـزيل عنه سحـابة التبرّم التـي لازمته كـامل النهّار. وكـان شـديد الحرص على ذلك حتى لا يكـدّر صفو أمّه، فيعـود إليها الاطمئنان وهدوء البـال. ودخل المنزل متكلّفا للنشاط والانشراح، فأسرعت إليـه أمه تتحسّس جبينه وتسأله عن صحّتـه. فلما قال لها: إنّـه بخير، وأن الصداع زال عنـه منذ الصّبـاح انصرفت ناشطـة تهيّىء لـه طعام العشـاء، وهي تهزج وتترنّم.

لم تكن عنده شهيـة للأكل. لكن أخـذا بخاطر أمّـه تناول ملعقتين كاد يغصّ بهما. ثم اعتذر لها مدّعيا أنّه شبعان؛ تناول خبـزا وزيتـا بعـد العصر؛ فـاطمأنّت أمّـه إلى قـولـه، وحملت «السفرة» عـائدة بها إلى المطبخ بينما كان هو يستعـد للخروج. وفي وسط الحوش لقيـه أبـوه عـائدا من المسجـد بعـد صـلاة العشاء.

أشتغل ... وقت مناسب ... بعد صلاة الجمعة ... لعلّه يأتي إلى الجامع ... مهما يكن، فالفرصة مؤاتية ... سأتّصل بالأسرة عن قرب ... سوف أراها إذن ... »

***

كان أوّل القادمين إلى المسجد الجامع ... جاء قبل أن يشرع المقرىء في تلاوة القرآن ... تتابعت وفود المصلّين زرافات ووحدانا ... كان يتطلّع في الوجوه، يتفرّس كل داخل ... لم يكن من ضمنهم الشيخ مفتاح ... لم يأت لحدّ الآن ... استوى الامام عل المنبر ... ساد الصمت إلاّ السعال المتصاعد من صدور الشيوخ ... ورتّل الامام خطبته المكرورة ... لاشيء ... فراغ في فراغ ... عبد الله يحفظ كلماتها عن ظهر قلب ... حتّى إشارات الامام وحركاته مع كلّ كلمة كان يعرفها ... شيء واحد لفت نظره وجلب انتباهه ... هذه العصا الجديدة التي بيد الامام، تلعب بها يمناه كأنّها مزهوة فخورة ... من أين جاءته هذه العصا؟ ورفع عينيه إلى السقف ... أعشاش الخطاف ... الخطاف تحوّم في أجواء المسجد ... لا تمسُّ فراخها بسوء ... كل من اعتدى عليها تأتي إليه الخطاطيف بالليل وتخيط عينيه.

وأحس بوخز في عموده الفقري:

«... أغراني إبراهيم على تسلق النخلة ... كان بها عشٌّ

يمام... لما اقتربت من العش وأدخلت يــــدي بين السعف انخلعت الكرنافة التي أعتمد عليها برجلي فهويت ســـاقطا، ووقعت على الأرض... أحسست بوجع في ظهري... تظاهرت أمــام إبــراهيم بــالجلــد والشّجــاعـة... لا شيء... لاشيء... وصعدت النخلة مرّة ثانية... نجحت... أمسكت بفرخي اليمام ونزلت مزهوا بالبطولة والكسب...»

وفي الليل بات يصرخ من شدّة الالم... كمّدته أمه بالرّماد الساخن... بالملح... بالرمل... وبعد أسبوع عاد إلى الكتّاب.

كانت النخلة «عمّارية» عتيقة تشمخ بسموقها عمّا حولها من نخيل... صعد فوقها مرّة فبدت له سطوح المنازل كأنّها القصاع الموزعة هنا وهناك... لم يستطع أن يرى سطح منزلهم... كان بعيدا، تحجبه دار جارهم المرتفعة... إذا نظر إلى أسفل بدا له قسم كبير من الواحة... بساتين الجيران وأبناء العمّ... بستان سي صالح... التوتة الكبيرة... الخص الذي يسكنه الشيخ مفتاح الآن؟.. ما يزال كما عرفه وهو غلام يافع... لم يتغيّر.

وانتهت الصّلاة، وتزاحم المصلّون على الخروج فكان عبد الله أسبقهم... اخترق شوارع القرية يحثّ خطاه... كان شريط الذكريات والصور والمشاهد زاخرا متناقضا... الصور تمرّ

تباعـا . . لا تستقرّ... لا تتريّث... صورة واحـدة كانت لا تغيب حتى تعود... تتجمّع حوها الصور وتتكـدّس لكنّها كانت تطفو فوقها وتعلـوها... صورة عائشة... صـورة المأساة والمرارة... بدت له، كما رآهـا أول مرّة، تمنشط تحت شجـرة التوت... قـف شعره واقشعـرّ جلـده... ابتسم من هـذا التنـاقض في المشـاهـد والتّخيُّلات.

***

اختفت القرية عنـدما ابتدأ يتوغّل في الـواحة ويشقّ مساربها الملتـوية ومسـالكها الضّـيّقة. وقبل أن يصل «السـانية» أدركـه إبراهيم تخبُّ به بغلتـه الفارهة، فحيّاه وسألـه عن محمود وأخبار والده، بعـد أن أجريت عليه عمليّـة بسبب الزائدة الـدوديّة. لم يكن إبـراهيم يعلم مـن أخبـار محمـود الشيء الكثير... لم يستلم منه إلاّ رسالة واحدة هنّأه فيها بـزواجه، كتبها بعد عشرة أيام من وصـوله إلى تونس. وأضاف إبراهيم قائلا :

ـ والطريف في الأمر أن محمودا لم ينس «بخنوق بنت المحاميد»

ـ يبدو أن «القنّاريّة» وخبز «السميد» لطّفا من مزاجه.

لكنّها أنسياه الاصدقاء والاصحاب.

ـ حسّن ظنك به، يا عبد الله، محمود أخ ألوف.

ـ لم أرَ ما يدلّ على ذلك.

ـ لعلّ له عذرا.

ـ ثلاث دقائق كافية لكتابة رسالة.

ـ لا تنس أنّه مشغول بأبيه... والخضراء سلاّبة للعقول، يا عبد الله!

ـ من هذه النّاحية صحيح... كيف أنت وحياتك الجديدة؟

ـ حلوة، يا عبد الله... لكنّها تتطلّب...

ـ ما دامت حلوة كلّ شيء يهون.

ـ قاتلك اللّه، يا عفريت، كلامك دائما ألغاز... وأنت متى يأتي دورك؟

ـ العلم عند اللّه... يقولون إنه شيء لا بدّ منه.

ـ عجّل، يا أخي، حتّى نفرح بك.

ـ أخشى ألاّ تعجبك طريقتي.

ـ مرّة أخرى تعود إلى الالغاز... سيكون لنا حديث بعد عودة محمود... هل تظن أنّني لم أسمع؟ محال! إن «جهينة» لا يُخفي عنّي شيئا.

وحرّك إبراهيم لجام بغلته، فقد وصل عبد الله أمام باب

«السّانية»؟ واندفعت البغلة تغذّ السير بين مسارب الواحة ومسالكها الضيّقة، بينما تسلّل عبد الله إلى «السانية» في شيء من التهيُّب والحذر.

كان يودّ لو أنّه يملك طاقية الاخفاء التي تتحدّث عنها أقاصيص ألف ليلة وليلة حتى لا تراه عين ولا يشعر به أحد. لقد حسب أن كل نخلة رقيب عليه، وأن كل شجرة ملئت عيونا تحصي عليه حركاته. وتصبّب جبينه عرقا. وفكّر في العودة إلى القرية. ثمّ تشجّع واقترب من السياج متظاهرا كأنّه يتفقّد الخضر والبقول. بينما عيناه تتلصّصان وتخزران إلى سانية سي صالح علّهما تلمحان أحدا من أسرة الشيخ مفتاح. ولم يلبث أن رأى مبروكة خارجة من الكوخ، تحمل غربالا مكوّما بالنّخالة؛ فاتّجهت إلى «المربط» وألقت بالنخالة أمام الحمار. ثم رجعت صوب الكوخ، فأسرع عبد الله يجتاز «الطابية». وأدرك الكوخ قبل أن تصله مبروكة. فلما اقتربت منه حيّاها يسألها عن صحّة والدها، فردّت عليه في خجل:

ــ يسأل عنك الخير، يا سيدي. بابا في طريق الشفاء، والحمد لله. تفضّل. إنّه نائم... بابا بابا... سي عبد الله جاء. وسمع صوت الشيخ مفتاح يقول من داخل الكوخ:

ــ أهلا. أهلا بسي عبد الله... تفضّل. خش، يا

ولدي . . زارتنا البركة ... شرّفتنا ... بارك الله فيك .

تقدّم عبد الله من باب الكوخ . وأبصر الشيخ مفتاح ، فقال يحيّيه :

ـــ لابأس عليك إن شاء اللّـه . علمتُ اليوم فقط أنَّك مريض ، فانتهزت عطلة الجمعة وجئت أعودك .

ـ جازاك الله خيرا ، يا ولدي ... واللّه الذي لا ربّ سواه أخجلتموني بلطفكم وكرمكم ... أنا لا أدري كيف أجازي هذه الأسرة الكريمة وأردّ لها الجميل ... يا مبروكة هاتي الجلد ليجلس عليه سي عبد اللّه ... اعذرنا يا . ، ولدي ، هذا هو الموجود ... يا مبروكة اعملي الشَّاي ...

ـ لا داعي للشاي ، يا شيخ مفتاح . أنا جئت لاطمئن على صحتك . وها أنَّك في طريق العافية ، والحمد للّه ... ممّ كنت تشكو ، يا شيخ مفتاح ؟

ـ المقدّر كائن ، ياولدي ... منذ عشرة أيّام كنت أسقي «السانية» ليلا فعفست على زجاجة مكسورة فشقّت باطن قدمي ... الحمد للّه ، الجرح خفيف ، لكنّه منعني من العمل وحال بيني وبين المشي .

ـ هذا ، ولا أكثر ... مثلك لا يتطلّب التّسلية والعظة

إنّكَ جرّبت الأيّام واختبرت الدهر.

ـ قل : لن يصيبنا إلاّ ما كتب الله لنا ... قضاء نزل ... اللهم لا نسألك ردّ القضاء. ولكن نسألك اللُطف فيه ... مبروكة ... أين أنت يا مبروكة ... الشاي لم يحضر؟ هل تطبخين جملا؟

وأجابت مبروكة من داخل «المطبخ» :

ـ حاضر . حاضر، يا بابا.

فقال عبد الله :

ـ أخشى أنّني أزعجتكم.

ـ أبدا، والله . نحن سعداء في هذا اليوم... وهل نستطيع مجازاتكم؟ . أنا لا أنطق أمامك بهذا الكلام نفاقا ومداجاة... عشرات السّنين المريرة مرّت عليّ فلم ألق مثلكم. ولم أجد أحسن معاشرة منكم.

لم يدر عبد الله كيف انساق يسأل الشيخ عن سبب هجرته من ليبيا، فتنهّد الشيخ مفتاح طويلا، وأمسك بقدمه المعصوبة فضغطها بيديه كأنّه يمسّدها، وسكت لحظة ثم قال :

ـ سؤالك، يا ولدي، أثار مواجعي. قصّة حياتي قصّة طويلة محزنة! فماذا تريد أن تعرف منها؟ أبقى الله ستره على الجميع.

وأثارت لهجة الشيخ في نفس عبد الله النَّدم، وأحسّ بضميره يخزه فهمّ بالاعتذار عمّا طلب. الا أنَّ الشيخ لم يمهله فاستأنف حديثه قائلا :

ـ كنت في ريعان الشباب عندما هجم الطّليان على طرابلس. وكنت قبل ذلك أعيش في الذّكريات الحلوة وأحلام النَّخوة والشهامة كلّما حدّثني والدي المرحوم عن ثورة «غومة» ضد الاتراك العثمانيين، وعن أصناف البطولة التي أظهرها والدي أثناء تلك الثورة... وجاء العدوان الايطالي، وأنا في ذلك الجوّ من النخوة والحماس، فوجدت نفسي مدفوعا إلى تلبية نداء الواجب والدفاع عن الوطن... انضممت إلى صفوف المقاومة والجهاد. وكانت الحرب والثورة! . . صارعَنَا الطليان وصَارعْنَاهُ... وجرت علينا أهوال وأهوال... وتعلّقنا بأمل الفوز والانتصار عندما أعلنت حكومة وطنية... ولكن انتصارنا كان برقا خُلبّا إذ غدر العدو ودارت علينا الدائرة؛ فانهزمت المقاومة وسقطت مدينة مصراتة في الجولة الأخيرة. وتمكّن الغزاة من تثبيت أقدامهم في أرض الوطن، فزادهم ذلك الانتصار إمعانا في التنكيل، وتخريبا للدّيار، وتقتيلا وتشريدا للسكّان. وهكذا وجدت نفسي هائما في الطّريق مع زوجتي، مشرّدين في القفار والبراري مع عشرات الآلاف من أمثالنا، باحثين عن الملجإ والاستقرار إلى أن وصلنا الحدود التونسيّة بعد شهرين ذقنا

خلالها الأحوال. وكانت بنت العمّ، زوجتي المرحومة، في بداية حملها الأول فاخترنا البقاء في «قصر مدنين». واشتغلتُ عاملا فلاحيا كَسْبا للقوت ورأفة بالحُبلى. إلاّ أنّ ظروفا قاهرة أجبرتنا على الانتقال من قصر مدنين إلى «مطماطة».

وجاءت مبروكة بكأس الشّاي فسكت أبوها عن متابعة حديثه راجيا من عبد الله أن يشرب الشاي، معتذرا له عن عدم وجود اللّوز أو الكاكاويّة بالمحلّ. وأمسك عبد الله بالكأس دون أن يرفع نظره إلى مبروكة، وقد خيّم عليه الأسى. وسبح في جوّ أقتم من النّدامة على ما أثاره من أشجان هذا الشيخ البائس حتى تمنّى ألاّ يسمع بقيّة المأساة. إلاّ أن الشّيخ مفتاحا عاد يسرد قصّته. فقال له بعد تنهيدة طويلة مشحونة باللّوعة:

ــ وتشاء الصدف أن يدرك المخاض زوجتي، ونحن في طريقنا إلى مطماطة فولدت «مبروكة»... ثم تعاورتنا بعد ذلك أيام الزمان وحوادثه فطفنا بأغلب الجنوب التونسي... النتيجة من كل ذلك موت زوجتي، وهي في عزّ شبابها، بعد ولادة عائشة بسنوات قليلة... آه... عائشة الكسيحة! لا حول ولا قوة إلاّ بالله... ماتت أمّها وهي بنت ثلاث سنين.

آه. يا سي عبد اللّه. وهذه مأساة أخرى! مأساة عائشة... إن أمرها لغريب، يا ولدي. لم تُصبْ عائشة بمرض أو علّة... كان نموّها طبيعيا لا شائبة فيه. وكنّا مسرورين بها

عندما أخذت تـدبّ وتمشي وتبدّل خطـواتها ... وذات يوم ـ في ضحى يوم أربعاء كما أتـذكّر الآن ـ كانت الطفلـة تلعب بالقرب من أمّها عنـدما قصف رعد مهـول، ونزلت صاعقة قـرب المنزل الذي نسكنـه . وارتاعت المرحومة، وأسرعت إلى ابنتهـا تحتضنُها من شدّة الخوف، و إذا بـالطفلة مشنّجة الأعصـاب، مصروعة، فاقدة للوعي...

حاولنـا بكلّ مـا لدينا مـن وسائل العلاج انقـاذها مـن خطر الموت... لا أطيل عليك، يـا سي عبـد اللـه... ليتنـا لم ننجح في إنقـاذها... لما تماثلت من مـرضها صـدمتنا بعلّتهـا المزمنة. فقـد أصبحت كسيحـة مشلـولة، وهـي ما تـزال على تلك الحالـة إلى اليوم... واللّه أعلم بمصيرها ومصيرنا.

واغرورقت عيناه بالدّموع فلم يستطع عبد الله حبس دموعه. وبقيا صامتين. لو لا أنّ الشيخ قال:

ـ المعذرة، يـا سي عبد اللّه، لقد أثـرت شجونك وأحزنتُك. لقد وجـدت نفسي مدفـوعا إلى بثّـك هذه الشكـوى. إنّني لا أشكّ في إخلاصك وعطفك... لست أدري كيف أبحثُ لنفسي هذا... إنّها أوّل مرة تروي فيها شفتاي هذه المأساة المؤلمة.

ثم نادى مبروكة وطلب منها أن تبحث عن عـائشة وترّضاها . والتفت إلى عبد الله وقال له:

ـ عـائشة غـاضبة هـذا اليوم ! . . أغضبتْهـا أختها ... الحقّ أن مبروكة متبرّمة هـذه الأيام ... هي معذورة ، يا ولـدي . إنّها موزعة بين شيخ مـريض وكسيحة مُقعَـدة ... صبرُهـا صبرُ الإبل . لكن للصبر حـدود ... لقـد وقفت حيـاتها علينـا ، نسيت شبـابها وتجاهلته ... أتراب مبروكة متـزوجات ولهنّ أطفال . أما هي ففي اللَّـوعـة والحرمـان ! . . اللهمّ صبرك وغفـرَانِـك ، يـا ربّ الارباب ... »

وأقبلت مبروكة تبتسم وتقول لأبيها :

ـ سوف تأتي عائشة ... إنّها مشغولة الآن ...

انحنى عبد الله قليلا ليجتاز بوّابة الكوخ، بعد أن ودّع الشيخ المريض، متمنيا له تمام الشّفاء والعافية، ودفع جسمه يمشي كالتائه، وقد استبدّت بمشاعره مأساة هذا الشيخ الغريب وأسرته. وظلّ يمشي... يمشي بلا هدف بين الأشجار والنّخيل، لا يعنيه أين تقع قدماه؟ على الجسر، في الساقية، فوق المَمْشى، على شجيرات الفلفل والطّماطم، على فروع القرع أو جذوع البصل... وفجأة وقف مبهورا!. عائشة جالسة تحت شجرة التوت... اهتزّ للمفاجأة... تسمّر مكانه... دقّات قلبه تسرع وتعلو فيصل طنينها إلى أذنيه أشدّ من قرع الطبول... عيناه لا تطيقان النّظر إليها والتّأمّل منها... همّ بالتّراجع والحيدان عنها. ثمّ عدل عن ذلك وتقدّم نحوها حتّى أصبح على بعد ذراعين أو أقل... وقال متلعثما:

ـ لماذا أنت غاضبة، يا عائشة؟ أبوك مريض، وأختك حفيّة

بك، عطوفة عليك... عودي إلى أبيك تنالَ رضاه وصالح دعواته.

وتصمت عائشة فلا تجيبه، ولا ترفع رأسها المنكّس إلى الارض.

«... هذا عبد الله بجانبها... يكلّمها لأوّل مرّة... كثيرا ما حدّثتها فاطمة عنه... حدّثتها عن صرامته وبأسه، عن مكانته في البيت، عن كلماته التي لا تردّ... كانت تحمل له صورة غامضة مبهمة... لكن لهجته لم تبعث فيها رعبا... إنّه يبدو متوسّلا مستعطفا كأنّه يخاطب شخصا يكنّ له التقدير والاكبار... ومع هذا سكتت ولم تجبه... هل صدّها الخجل؟... ماذا منعها؟.. إن قلبها يخفق، يرتجف... يهتزّ لشيء طالما تمنّته... ها هو ذا عبد الله قريب منها... لم تأت معه فاطمة... أبوها طريح الفراش... أختها منهمكة في المطبخ... لماذا لا تفصح عما يجيش به صدرها؟.. إنه الآن وحده... ما هذا التردّد؟.. إنّه الوحيد الذي يستطيع أن يحقّق لها طلبها... أن يستجيب لرغبتها...»

وحاولت أن تتكلّم، فانعقد لسانها وجفّ ريقُها. واستمرّت مطرقة صامتة، بينما عبد الله تشتدّ به الوطأة وتزداد به الحيرة.

«... هل يكلّمها مرّة أخرى؟ هل يُلحّ عليها في أن تعود إلى

والدها؟ . . إنّها لم ترفع رأسها . . لعلّهـا غضبت عليه لأنه تدخّل فيما لا يعنيه . ولعله جرح كرامتها وخدش عزتها! . . »

ونشف ريقُـه فأصبح لسانـه أشبه بقطعـة جلد جـاف ، لكنّه تشجّع وسعل بقـوة ينبه عائشـة إلى أنّه مـا يزال بقـربها . لكنّها لم تحرّك سَـاكنا كـأنّ شيئا لم يحدث بجـانبهـا ، وتزيـده وقفتـه تلك ارتباكا .

« ... لو تراه مبروكة واقفا قـرب عائشة يحادثها ... إنّها الشكوك والشُّبهات ... إساءة ظن ... تهمة ... »

ودفعـه ذلك إلى أن يقترب من عـائشة أكثر ، وينحني عليهـا قائلا بصوت خافت :

ـ اسمعي ، يـا عائشة . . خـذي بخاطر أبيك . إنّـه مريض . سأفـرح كثيرا عنـدما تخبرني فـاطمـة غـدا أنك فعلتِ ذلك ... في وديعة الله ... مع السلامة ...

وما كاد يخطو بضع خطوات حتّى صاحت به :

ـ سي عبد الله! . . سي عبد الله! من فضلك .

فعاد مقترباً منها . وسألها :

ـ نعم . نعم . هل من حاجة؟

ـ طلب هيّن أرجوه

ـ ما هو؟

ـ عفوا ... أخجل.

ـ لا موجب للخجل ... اذكريه ... تشجّعي.

ـ هل تعدني بالكتمان؟

ـ ثقي بذلك ... تأكّدي.

ـ لا، لا. أنا أمزح معك، يا سي عبد الله، لاشيء.. لاشيء...

ـ هذا غير صحيح. لا بدّ أن لك شيئا تريدينه.

ـ هل لديك رغبة في شيء؟ ... قولي.

ـ صحيح!؟

ـ إي والله العظيم!

ـ أشكرك. سيدي. لا شيء عندي.

وأحس كأنّما أُلْقي به في أتون من نار، وأن قلبه يتلاشى ويتبدّدُ مِزقا. ولكنّه عفس كبده وكظم غيظه فأخذ يستدرج عائشة شيئا فشيئا، ويزيل عنها المخاوف والاضطراب ... أخيرا نجح! بعث فيها الاطمئنان، ونمّى فيها الأمل. فرفعت رأسها وحدجته بعينيها الدّعجاوين ونظراتها الملتهبة.

وقالت له في خجل واضطراب :

ـ إذن سأفصح لك عن رغبتي ... ولكن !

فقاطعها محتدا :

ـ لا فائدة من تطويل الكلام . أنا أسمعكِ جيدا ... يَلَّهْ ... قولي . .

ـ على شرط !

ـ الله . ما هذا الشرْط ؟ شرطك مقبول ، منفَّذ .

ـ أتعدني ؟

ـ أعوذ بالله من الشكّ والتشكيك ... بشرفي ، بالله ، بالتنزيل .

ـ الشَّرط ألاَّ تخبر فاطمة .

ـ هل أنا طفل ؟ لقد وعدتُك بالوفاء .

وتصمُت عائشة من جديد فيحترق قلب عبد الله تطلّعا وشوقا . ويعود إليها يتوسّل ، يرجوها أن تفضي إليه بها عندها . ورفعت رأسها دون أن تنظر إليه وقالت مرتجفة :

أريد أن تأتي ... بالتك ... بالتك . ر . ر ... بالتكروري . صُعق عبد الله ، وهو لا يكاد يصدّق ما سمعته أذناه . . فصاح كالمجنون :

ونهض متمهــلا . ودخل غــرفتــه . حتى إذا جــاءت أمّــه من «العين» وطرقت عليه البـاب تظاهر بأنّه كـان نائما . وأنَّه شبع نوما رغم سهره الطَّويل خارج المنزل .

تلفعت القرية بـظلام الليل. وازدرد عبد الله آخر لقمة من عشائه عندما أقبلت عليه فاطمة خفيفةً رشيقةً لتضع بجانبه كأسا من الشاي الأخضر.

«... هل يذهب إلى المقهى أو يبقى في البيت؟ البارحة لم يذق طعم النوم ... لكن الرفاق سينتظرونه، وقد يبعثون وراءه من يناديه ... غياب ليلتين قد يثير تساؤلاتهم عنه. ليس من الحتمي أن يلعب ورقا الليلة. سيكتفي بالذهاب والجلوس معهم قليلا. وبعد آذان العشاء يعود إلى البيت قبل عودة والده من الصّلاة ...»

وأحسّ بقوة تدفعه فنهض متثاقلا، ورأسه ما يزال يغلي بالهواجس والخواطر السوداء. وما إن اجتاز عتبة المقهى وظهر بلونه الشاحب على ضوء «الفنار» حتى عاجله أحمد بقوله:

؟ أين كنت، يا عبد اللّه؟ خسارة!.. آه، لو كنت معي البارحة!.. كانت رائعة ... أربعة أشواط لم يروا معها الضوء.

ـ تكـروري!!! أعـوذ بـاللّـه... هـذه مصيبـة... داهيـة زرقـاء... مَن الشيطـان الـذي أوحى إليك بهذا... من اللّعين... الكلب؟...

ـ ألا تريد إسعادي، ولو للحظة؟

ـ بئس الاسعـاد!.. إنّه الشقاء... الجنون، لا. لا. لا تفكّري في هـذا أبـدا... مَن المجـرم الـذي أشـار عليك بـه؟. هـذا عيب.. حرام... واللّه حرام...

ـ هل أكون أعقل منك، يا سي عبد الله. اسمع كلامي أوّلا. وقل بعد ذلك ما بدا لك.

وارْتج عليه، فامتقع لونه، واحتار.

«.. ماذا يفعل؟ لقد وقع في مـأزق! هل يتركها وشأنها بعد أن وصل بهما الحديث إلى هـذا الحدّ؟ لا.. إنّها ضحيـة... إنّ تركهـا هكذا خيانة..» ثم همّ بخنقها فتراجع مذعورا.. «لا... لابدّ أن لها قصّـة، لها هـدف... لماذا لا يعـرف كـل ذلك؟.. لماذا لا يكتشف أخطر سرّ مرّ عليه في حياته...؟»

ومرّة أخرى يعفس كبده، ويكظم غيظه. فقال يسألها:

ـ ما فائدتك من التكروري؟... هل تعرفينه من قبل؟

فأجابته:

ـ لا . والله . أنا لم أره أبدا . لكن بلغني أنّه يجعل صاحبه إنسانا آخر، ينتقل به إلى عالم سحري خلاّب ... أردت أن أنتقل ـ ولو لحظة واحدة ـ عن عالمي، عن واقعي النّحس المشؤوم ... أريد أن أرى نفسي أمشي على قدميّ، مرفوعة الرأس، منتصبة القامة ... لقد سئمت حياتي، سئمت انكبابي على الأرض ... آه ... ليتها لم تلدني ... أرجوك، يا سيدي. أتوسّل إليك بكلّ الأولياء ... سأكتم الخبر ... لن يعلم أحد ... سأحفظ لك الجميل ما كتب عليّ هذا العيش الشّقي.

وأجهشت بكاءً فلم يتبيّن عبد الله كلماتها الأخيرة. أما هو فكان محموما ... كان يحدّق فيها فلا يرى شيئا ... إنّما كان يسمع كلاما؛ كلامها الصارخ، شكواها المؤلمة، آمالها البلهاء؛ فازداد به البلبال، واشتدّت به حمّى الصدمة. «... بماذا يجيب عائشة؟ كيف يصرفها عن هذا الوهم، عن هذا الزيف القاتل؟ . .»

وللمرّة الثالثة يتجلّد ويعفس كبده. فتقدّم منها، وهو يكاد ينهار، وأمسك بمعصمها اللّدن النّاعم، وقال لها بصوت متقطّع مهموس:

ـ اسمعي، يا عائشة. أزيلي عنك هذا الوهم. أنا الذي سوف ينقذك ... سأعمل المستحيل حتّى أحقق لك السّعادة. لكن اصبري، اجعلي ثقتك في ... إن لي دواءا ناجعا

ينفعك... ليس هو التكروري كما زيّفوا لك... إنّه شيْء آخر. لكن صبرا، صبرا طويلا.

وتركها وانصرف، بينما ظلّت هي مشدوهة اللّب، مبهورة الأنفاس من هذا الموقف الغريب الذي وقفه عبد الله منها. وتساءلت في سذاجة وأمل:

«... هل صحيح أنّه يملك الدّواء النّاجع؟.. هل هو شيء غير التكروري؟ ما أظنه يعني التكروري: لقد طار صوابه عندما نطقت بكلمة «التكروري»؟.. لماذا لم أسأله عن ذلك الدّواء؟ هل تعرفه فاطمة؟ لو لم أشترط عليه كتمان الخبر لحدثتها بكلّ ما حصل. هي أخته تستطيع أن تفهم من كلامه أكثر منّي... على كلّ سأترضّى بابا ومبروكة كما وعدته، فلعلّه يفي هو بوعده...»

وجمعت أطرافها وسعت تحبو إلى الكوخ بعد أن أزالت عنها ما كان يبدو عليها من تجهُّم وانقباض.

***

لم يكن يتوقّع أن تطلب منه عائشة ما طلبت. ولم يكن يقدّر أن زيارته للشيخ مفتاح ستلبسه هذا الثوب الأسود من الأسى والحيرة.

عائشة الساذجة البريئة تطلب منه أكره شيء عنده وأبغضه إنّها سخريات الدّهر، وعجائب القدر!

«... إنّه المسؤول عن كلّ ما حدث... من أين لعائشة أن تعرف عن «التكروري» ومفعوله؟ عمّا يصوّره من باطل الوهم، وزائف التهويل... فاطمة! . ألا تكون هي التي حدّثت عائشة عن هذه الحشيشة اللّعينة؟ حكت لها ما تبعثه في نفس متعاطيها من أخيلة ومشاهد... واستولى عليها الوهم الخادع فتعلّقت به تعلّق الغريق بالدّلفين، والمشرف بالسّراب... غضبها لم يكن ناتجا عن مسلك أختها معها... إنّها في قلق وحيرة... إنّها تريد اللّحظة التي تحدثت عنها. . صرّحت بها أمامه... ورجت منه أن يحقّق لها رغبتها... ثم ماذا؟ . . ما هذا الأمل الجديد الذي بعثه في نفسها وجعلها تتعلّق به؟ . . ما هو هذا الدّواء النّاجع الذي وعدها به؟ إنّه كان يهذي أمامها عندما تفوّه بتلك الكلمات... إنّه لم يفكّر في نتائجها... لم يفكّر حتى في تلك الكلمات... هل أوحى به إليها الشيطان؟ . هل هي خطيئة أخرى يرتكبها مع هذه البريئة الساذجة؟ . . »

وقضى عشيّة يومه في بحران التساؤل والحيرة... لم يعد إلى القرية... لم يذهب إلى المقهى... خرج إلى البريّة... انقطع عن القرية... كان كالمخبول، يمشي قليلا ويتوقّف كثيرا... كان يسأل نفسه بصوت مسموع كأنّه يحادث شخصا آخر .

غابت الشمس وامّحت آثار الشفق بالآفاق الغربية... غاب لهيب الجمرة العظمى، وطغا الدّخان فاسودت الدنيا واختفت

عنه معالم المشاهدة . وكاد يرتطم بصخرة كبيرة فجلس فوقها واضعا رأسه بين كفَّيه الملتهبتين، وبقي ساهما لا يتحرّك كأنه أصبح جزءا من الصخرة الكبيرة ... تخدّرت رجله وأصابها «تنمُّل» فعاد به إلى دنيا الإحساس . ونظر حواليه فلم ير إلاّ الظَّلام الحالك والفراغ الشَّامل . الرؤى تمتدّ منبسطة لكن إلى قرب . إنَّه على مشارف الصحراء والبراري الخالية .

ونهض متثاقلا .

« ... كم لعب مع أترابه من الأطفال في هذه البراري؟ . . ليالي الصيف والقمر المزهر ... براءة الطفولة وخلوُّ البال ... القرية ما تزال بعيدة ... نطع مسافة طويلة قبل أن يجلس على الصخرة ... نظر إلى السماء! بنات نعش ، القطب الشمالي ، الثريا لم تظهر . كم السَّاعة الآن؟ المجرّة لم تقسم السماء نصفين ... طريق التبّانة ... لماذا لا تحرق حرارة الشمس ذلك التبن القريب منها في السماء؟ . . لماذا لا تتجمَّع النجُوم كتلة واحدة؟ . . ألا تكون في قوّة الشمس أو القمر على الأقل؟ . . »

وانتهى إلى مدخل القرية . . لا حسَّ ... لا حركة ... الشوارع خالية ... المقهى غلقت أبوابها ... انطفأ بصيص النُّور الذي يحتفظ به صاحب المقهى بعد أن يخرج الزبائن ليكنس على ضوئه ويهيّء ماعون الصَّباح ... الآن فقط أدرك أن الليل مضى أكثر من نصفه . وأن كل تلك الساعات مرّت كطرفة عين .

وعندما وقف أمام المنزل وجد الباب مغلقا بالمفتاح، فعرف أن أمّه انتظرته طويلا حتّى ملّت الانتظار وأغلقت الباب. انحنى قليلا وأدخل يده وجذب المفتاح الملقى على الأرض وراء الباب على بعد ذراع من عتبة الباب. وما إن تجاوز السقيفة حتّى رأى أمّه واقفة أمام غرفتها تنتظر؛ فلمّا اقترب منها قالت له، وهي كاسفة البال:

ـ الله يهديك، ياولدي! حيّرتنا كلّنا. لماذا لم تقل: إنّك ستتأخّر؟... العشاء فوق الدكانة.

ودخلت غرفتها مطبقة وراءها الباب دون أن تنتظر منه جوابا أو اعتذارا. أمّا هو فتسلّل إلى غرفته واندسّ في فراشه طمعًا في النّوم، عسى أن ينسى ما مرّ عليه في هذا اليوم العصيب من مشاهد وأحداث. ولكن أين منه النّوم؟ لقد وجد الفِراش شوكا قتادًا. وأصبح جوّ الغرفة بقا، براغيث، فأيس من النوم. وترقّب طلوع النّهار. لكن الليل يطول ويمعن في طوله فبدا له كأنّه تشبّث بتلابيب الأبد فلا يعقبه الضياء ولا يلحقه النهار.

وطرقت سمعه قعقعة الدّلو على حجارة البئر فعرف أنّ الفجر لاحت تباشيره وأن والده استيقظ وذهب إلى البئر يتوضأ لصلاة الفجر؛ فرمى بالغطاء وتربّع على الفراش يتدبّر أمره ويفكّر في حاله.

«... هل يستطيع التَّخلص من بلبلته وبلبابه؟ هل يستمرّ به هذا البحران القاتل؟ فيما بدا له لا يمكنه أن يتحمَّل هذا الكابوس الثَّقيل... إنَّه هالك لا محالة... شبح الجريمة أصبح واضحا لا ريب فيه... إنَّه يراه أمامه في هذا الظَّلام الدامس... يراه حين يفتح عينيه، ويراه حين يغمضهما هروبا وفرارا منه ...»

ابتدأ الضياء يتسرَّب إلى الغرفة من شقوق الباب وفجوات النَّافذة... انهزم الليل إذن... لكن أرقه لم ينهزم، وبقي صامدا يصارعه حتَّى مطلع الفجر... شعر بشيء من الأمن والطمأنينة فغادر الفراش وأخذ يتمشَّى داخل الغرفة. كم مرة قطع الغرفة طولا وعرضا؟ إنَّه لا يعرف ذلك. لا يغنيه... حسبه أنَّه وجد في ذلك مشغلة أنسته بعض الشيء ممَّا هو فيه، فاستطابها ومال إليها.

أحسّ بألم في ركبتيه وفخذيه فظنّ أنَّه نداء النَّوم من هذا الجسد المنهوك والأعصاب المحطَّمة، فعاد إلى الفراش واستلقى فوقه. وأغمض عينيه تلهُّفا إلى إغفاءة يستريح لها بدنه ويستجمّ بها فكره... ظل كما كان مقرَّح الجفن صاحي الذهن فعاد إليه اليأس مرّة أخرى وعزم على مغادرة الفراش بعد أن سمع والده يغلق الباب في طريقه إلى المسجد. وبعد أن اشتدّ الضياء في الغرفة.

عندما فتح باب الغرفة ملأ عينيه هذا الضوء الهادىء الذي غمر الكون قبل بزوغ الشمس. وأنعشته نسمات الصَباح التي لامست صفحة وجهه فبعثت في بدنه النَّشاط والخفَّة. وذهب الى البئر وأخرج سطل ماء فتوضأ وصلَّى صلاة الصبح. وجلس على رملة الحوش النديَّة الباردة، بينما كانت الهرّة مُقعية بجانبه كأنّها تستغرب منه هذا المشهد الذي لم تره من قبل.

كانت الحركة قد بدأت تدبّ في الحوش: خرجت نعجة من الزَّريبة. وسرح الدَّجاج يبحث عن قوته. وحوّمت يمامة حول البئر ثم ركست فوق الدَّلو طلبا لحسوة ماء، بينما هو ما يزال يسبح في عالم يقظته المتواصلة وهواجسه المتشابكة.

... لماذا كل هذا؟ ما جدوى هذه الاهتزازات والانفعالات؟!
... أليس من الأجدر أن يجعل من الضعف قوّة ومن الخور عزما؟. القضية تعود من أساسها إلى تلك الحشيشة الملعونة! صحيح أن الامر أصبح أشدّ خطرا من ذي قبل. لقد تجاوز النطاق الذي كان سابقا. تجاوزه إلى ما كاشفته به عائشة أمس... فليقف من ذلك موقف الحزم... ليقتحم الميدان وحده إذا خذله الرّفاق، وتنكّبوا عن مساعدته، أليس في ذلك مرضاة لضميره؟...»

ونهض متمهــلا . ودخل غــرفتــه . حتى إذا جــاءت أمّــه من «العين» وطرقت عليه البـاب تظاهر بأنَه كـان نائما . وأنّه شبع نوما رغم سهره الطَّويل خارج المنزل .

تلفّعت القـرية بـظلام اللّيل . وازدرد عبـد الله آخر لقمـة من عشائه عنـدما أقبلـت عليه فاطمـة خفيفةً رشيقـةً لتضع بجـانبه كأسا من الشاي الأخضر.

« ... هل يذهـب إلى المقهى أو يبقى في البيت؟ البارحـةلم يذق طعم النّـوم ... لكن الـرفـاق سينتظرونـه، وقـد يبعثـون وراءه من يناديه ... غياب ليلتين قد يثير تساؤلاتهم عنه . . ليس من الحتمي أن يلعب ورقا الليلة . سيكتفي بالـذّهاب والجلوس معهم قليلا . وبعد آذان العشاء يعود إلى البيت قبل عودة والده من الصّلاة ... »

وأحسّ بقـوّة تـدفعـه فنهض متثـاقلا، ورأسـه مـا يـزال يغلي بـالهواجس والخواطر السـوداء . وما إن اجتـاز عتبة المقهى وظهـر بلونه الشاحب على ضوء «الفنار» حتى عاجله أحمد بقوله :

؟ أين كنت، يـا عبـد اللّـه؟ خسـارة! . . آه، لـو كنت معي البارحة! . . كانت رائعة ... أربعة أشواط لم يروا معها الضوء .

ـ كان اللّعب حاميا فيها يظهر.

ـ أكثر ممّا تتصوّر ... بصراحة تمنيت لو كنت معي . ماذا أقول لك؟ كانت ضيافة ممتازة لمحمود .

فقال في لهجة المهزوز.

ـ محمود! ... وهل قدم محمود؟

ـ غريب! عجيب! ألم تسمع؟ . . جاء محمود منذ أمس ... حدثنا كثيرا عن «الخضراء» وعمّا فيها من المدهشات .

ـ وكيف ترك أباه؟

ـ جاء معه . سيقضي أسبوعا هنا . ثم يعود إلى بلاد الخير.

تنفّس عبد الله الصعداء، وتحمّد عاليا . ممّا أثار فضول أحمد فسأله :

ـ إيه ... مالك؟ تتنهّد! . . هل تنتظر شيئا مع محمود؟

ـ تنهيدة خرجت ... خلّنا عن هذا ... هات «المعدّ» و«الدومينو» .

وألقى بنظرة إلى ركن المقهى فرأى «سي حميدة» جالسا على الحصير، مكوّنا من رجليه الممدودتين زاوية منفرجة وضع فيها «البشقي» واللوحة، وهو منهمك في تفتيت التكروري وخلطه بالسُّوفي. وكان إلى جانبه خميّس المصفار، يجلس الفرفصاء،

ويتبع في اهتمام ونهم حركات «البوشقي» في فرْمِ التكروروري، وتلتذ أذنه بخشخشة فريعاته بين اللَّوحة و«البشقي».

«... منذ عشر سنوات كان سي حميدة زينةَ القرية، وحديثَ المجالس والدكاكين... تاجر كبير في الأقمشة والكتّان! مَنْ مِنْ أهل القرية لم يقتن من فاخر ألبسته وبديع قماشه؟ كلّ ديار القرية مدينة لسي حميدة. الحوالات البريديّة تتوارد عليه من تونس وسوق الإربعاء وتوزر... ثروة سي حميدة غنمها من بيع الفطائر والزّلابية بالغرب الجوّلي. بقي هناك عدة سنوات. ثم عاد إلى القرية منتفخ الجيوب بالفلوس واللَّويْزِ الأحمر... وتدور الأيام! وإذا النجم إلى أُفُول، يهوي على الارض لا جذوة فيه... انفضَّت الهالة التي كانت تحيط به... وعادت القرية إلى الحديث من جديد عن سي حميدة... فرّ عنه الاصدقاء والمتزلّفون... جفاه الاقارب والاباعد... صديق واحد ظلّ وفيًّا له... السبسي... سبسي التكروري! سبب العِلَّة وأصل البليَّة...»

وتساءل عبد الله عمّاً إذا بقيت عند سي حميدة نبذة من عقل. وضحك فيما بينه وبين نفسه.

«... سي حيمدة خسر تجارته، فقد ماله وجاهه... وأي شيء بعد كل ذلك؟..»

وجاء القهواجي بالمعدّ والدّومينو فتظاهر عبد الله بالانهماك في

اللّعب بينما فكره ما يزال مشغولا بذكر الأيام الخالية للتاجر الكبير.

ودخل محمود قبل أن تنتهي الجولة الاولى من اللُعبة، فرمى عبد الله بالأحجار وأسرع إليه يحتضنه، ويرحّب به، ويسأله عن صحّة الوالد. ثم صاح بالنّادل ليقدم إلى محمود فنجان قهوة أو كأس شاي. وتحلّق الجماعة بمحمود يمطرونه أسئلة عن تونس الخضراء. وصفّق أحمد يطلب «الكارطة» ويثير محمودا ليأخذ بثأر هزيمة الليلة الماضية.

«... الفرصة تفوت ... إذا بدأوا اللعب ضاعت الليلة ...»

قال عبد الله يخاطب الجماعة:

ـ ألا نستريح ليلة واحدة من لعب الورق؟. أخبار محمود طريّة. وكلّنا شوق إليها. لماذا لا نذهب إلى «العين الجديدة» نختلي هناك ونستمع إلى محمود؟

ولم ير الرّفاق مانعا، فوافقوا على الذّهاب وأوصوا القهواجي بإعلام مختار و إبراهيم بأنّهم في انتظارهما عند العين.

***

الأرجُل تتدلى في الحوض. تخضخض الماء المتدفّق من حلقوم العين لينصبّ في قاع الحوض. ثم يندفع بقوّة صاعدا إلى أعلى

فوّارا مبيضا كأنّه ممزوج بالحليب أو مخلوط بالثلج ... زبد الماء الفوّار هو البصيص الوحيد من الضوء يبدو باهتا ضعيفا وسط الليل المظلم. وشرشرة الماء تكوّن مع أصوات الصراصير ما يشبه انسجاماً موسيقيا رائعاً في هذا السكون المخيّم على الواحة. أمّا الرّفاق فكانُوا مشغولين عن ذلك كلّه، وهم مغرقون في الانصات إلى حديث محمود عن رحلته إلى تونس منذ أن وصل «باب عليوة» إلى أن فارقها أمس صباحا.

وسكت محمود في انتظار سؤال جديد، تاركا لشرشرة المياه وأصوات الصّراصير نوبتها في إمتاع الحاضرين. وكاد يطول هذا السكوت لولا أن قطعه عبد الله بقوله :

ـ أنا، يا إخواني، مشغول الفكر هذه الأيام.

فقال مختار مداعبا :

ـ بالله، يا عبد الله، لا تنكّد علينا السّهرة... مشغول... مهموم... يا لطيف الطف... يلّه، يا محمود، كمّل حديثك الحلو. هل شاهدت الببغاء الذي يحكي عنه النّاس في سوق سيدي محرز؟

ويضيق عبد الله بمعاكسة مختار له فيقف محتدًا، ويقول بلهجة صارمة :

ـ ستكون ليلتُنا هذه حاسمة! . لعلّنا سنختلف الليلة...

اللّعب بينما فكـره ما يـزال مشغـولا بـذكر الأيَام الخاليـة للتاجـر الكبير.

ودخل محمـود قبل أن تنتهي الجولـة الاولى من اللُّعبـة، فـرمى عبد الله بالأحجـار وأسرع إليه يحتضنه، ويرحّب بـه، ويسأله عن صحّة الوالـد. ثم صاح بالنّادل ليقدم إلى محمـود فنجان قهوة أو كأس شاي. وتحلّق الجماعـة بمحمود يمطـرونه أسئلـة عن تونس الخضراء. وصفّق أحمد بطلب «الكـارطة» ويثيرمحمودا ليأخذ بثأر هزيمة الليلة الماضية:

«... الفرصة تفوت... إذا بدأوا اللعب ضاعت الليلة...»

قال عبد الله يخاطب الجماعة:

ـ ألا نستريح ليلة واحـدة من لعب الـورق؟. أخبار محمـود طـريّة. وكلّنـا شوق إليهـا. لماذا لا نذهب إلى «العين الجديـدة» نختلي هناك ونستمع إلى محمود؟

ولم ير الـرّفاق مانعا، فـوافقوا على الذّهاب وأوصـوا القهواجي بإعلام مختار و إبراهيم بأنّهم في انتظارهما عند العين.

***

الأرجل تتـدلى في الحوض. تخضخض الماء المتدفّق من حلقـوم العين لينصبّ في قـاع الحوض. ثم يندفع بقـوّة صاعـدا إلى أعلى

فوّارا مبيضا كأنّه ممزوج بالحليب أو مخلوط بالثلج ... زبد الماء الفوّار هو البصيص الوحيد من الضوء يبدو باهتا ضعيفا وسط الليل المظلم. وشرشرة الماء تكوّن مع أصوات الصراصير ما يشبه انسجاما موسيقيا رائعا في هذا السكون المخيّم على الواحة. أمّا الرّفاق فكانوا مشغولين عن ذلك كلّه، وهم مغرقون في الانصات إلى حديث محمود عن رحلته إلى تونس منذ أن وصل «باب عليوة» إلى أن فارقها أمس صباحا.

وسكت محمود في انتظار سؤال جديد، تاركا لشرشرة المياه وأصوات الصّراصير؛ وبتّها في إمتاع الحاضرين. وكاد يطول هذا السكوت لولا أن قطعه عبد الله بقوله :

ـ أنا، يا إخواني، مشغول الفكر هذه الأيّام.

فقال مختار مداعبا :

ـ بالله، يا عبد الله، لا تنكّد علينا السّهرة... مشغول... مهموم... يا لطيف الطف... يلّه، يا محمود، كمّل حديثك الحلو. هل شاهدت الببغاء الذي يحكي عنه النّاس في سوق سيدي محرز؟

ويضيق عبد الله بمعاكسة مختار له فيقف محتدّا، ويقول بلهجة صارمة :

ـ ستكون ليلتنا هذه حاسمة! . لعلّنا سنختلف الليلة...

لكن ـ مسبقًا ـ أنا مصمّم على رأيي .

فقال ابراهيم مستغربا :

ـ لماذا كلُّ هذا الغضب؟ نحن لم نفهم شيئا . أخبرنا عن همّك واضطرابك . وبعد ذلك يرحم الله .

فتداخل مختار من جديد :

ــ أما أنا فغير مستعد... يكفي ما أتحمّله طول النَّهار... المحراث، المسحاة، المنجل، عديلة الحشيش... والعجوز الثرثارة لا تقنع بشيء... إنَّها تشفق على الحمارة أكثر ممَّا تشفق عليَّ .

وظنّ عبد الله أنّه أمسك بخناقه فقال له :

ـ وماذا يُرجى ممن يعقّ أمّه ... هل هنالك همّ أكثر من هذا؟

فقال مختار في تشنج :

ـ عبد الله! قف عند حدّك ... وإلاّ! ...

فقاطعه أحمد :

ــ ألعنوا الشيطان، يا أولاد ... ألهذا جئنا؟ . أنا على رأي إبراهيم ... تكلّم يا عبد الله .

وتسلّل مختار وراء الطّابية فاندس في ظلام الواحة دون أن ينطق بحرف واحد . وران على الرفاق صمت كاسف سمح للماء الفوّار بإيصال خريره إلى الآذان من جديد .

وحاول محمود أن ينقذ الموقف فرجا من عبد الله أن يتابع حديثه، وألاّ يعبأ بهزل مختار ودعابته. وتردّد عبد الله ـ أول الامر ـ ثم تنهّد وقال :

ـ أصارحكم بأنني ضِقت ذرْعًا بهذا الشرّ الذي عمّت مصيبته. واندفع إليه الشباب اندفاعا جنونيا ... إن خطر التكروري يزداد استفحالا كلَّ يوم ... كأنَّ الضحايا العديدة لم تزدنا إلاّ تكالبا عليه ... فلماذا نقف جامدين أمام الهوّة التي سنقع فيها جميعا؟ إنّي أقترح أن نقوم بعمل مشترك لفائدة هذه القرية . .

وجاءت قهقهة عالية من وراء الطابية أرسلها مختار المختفي في الظلام، وقال هازئا :

ـ أهلا بالزعيم الجديد ... إنها ليلة مباركة، ليلة ميلاد الإمام المصلح.

وتابع عبد الله حديثه دون أن يعبأ بدعابة مختار :

ـ ما الفائدة؟ ... إنّه إجرام بأنفسنا وبمجتمعنا إذا تمادينا على هذا الإغضاء والانحلال!

فسكتت الجماعة. إلاّ أن إبراهيم قال :

ـ وما عسى أن يجدي موقفنا؟ . . الشَّعب يتعاطاه. والحكومة تشجِّع عليه، وتتولّى الا ختصاص في بيعه.

وعقَّب عبد الله على كلام إبراهيم :

ـ من هنا تبدأ الهزيمة. . التعلّل بانغماس الشعب واختصاص الحكومة... أيّة حكومة؟ . . فرنسا تمنع التكروري في بلادها. لكنّه هنا مباح اهل هنالك أعجب من هذا؟ . . هل تودّ حكومة الاستعمار أن تسلم عقول الشّعب وتصحّ أجسامه؟ مُحال.

وقال صالح :

ـ التكروري يباع في الأسواق، يتعاطاه النّاس جهارا. هل في إمكاننا منعهم؟ . . هل نحن مستعدّون؟ . . وماذا وراء ذلك؟ . . السجن! . . أشياء أخرى.

فقال إبراهيم :

ـ هذا صحيح.

وقال محمود في انفعال ستره الظّلام:

ـ أنا على رأي عبد الله... القضيّة ليست إلى الحدّ الذي تتصوّرون أو تهوّلون... إذا امتنعنا من تعاطي هذه الحشيشة ماذا يقع؟ . . هل تجبرنا الحكومة على تدخينها؟

فقال ابراهيم :

ـ هذا عمل مشترك، جماعي ... يفسرونه بالتآمر.

فردّ عليه محمود :

ـ سامحني إذا عقَّبتُ على كلامك يا إبراهيم وقلت : إنَّه تخاذل، جبن، هوس عجائز... أنا كنت بتونس، هنالك الجمعيات والأحزاب... هنالك الاجتماعات والإضرابات.

فقال إبراهيم :

ـ لكن نحن هنا، في هذ القرية النائية لا نستطيع أن نفعل شيئا... شيخ التراب عندنا أقوى نفوذا وأشدّ هيبة من المقيم الفرنسي... الجندرمي هنا أعلى سطوةً من قائد جيش الاحتلال.

وتأفّف عبد الله قبل أن يقول :

ـ لماذا كلّ هذا التعقيد؟. . إنَّه مجرّد اقتراح. مَنْ منّا على استعداد لمقاطعة هذ الحشيشة وتحريمها على نفسه؟. .

وفجأة انتصب بينهم مختار واقفا وقال في حزم وجدّ :

ـ سمعت كلّ شيء... أنا معجب بفكرة عبد اللّه... الحقّ معه... أنا على رأيه... أعاهدكم بأنّني لن أذوقها أبدا. . سوف أعمل على مقاومتها بكلّ ما أستطيع.

وساد الصّمت بعد كلام مختار المنفعل. ثم قال إبراهيم :

ـ أرأيتم؟ من هنا بداية الخطر... ما معنى المقاومة؟. . ماذا يعني بها مختار؟

«... إبراهيم بن أحمد العائب... أحمد العائب من قدماء

المحاربين... ترك رجله بالواجهة الألمانية في الحرب العالميّة الأولى... عوّضتها له فرنسا برجل خشبيّة يابسة... لطخت صدره بأوسمة القصدير؟ قد يكون إبراهيم صادقا مخلصا... لكن من يدري؟ . لعلّه يتحدّث في الدّار فيتسرّب الخبر إلى والده، وتكون الطامة... لا... يجب أن يتغيّر مجرى الحديث فورا...»

هل أدرك محمود ما يدور بخلد عبداللّه من هواجس؟ . تخوفات إبراهيم... كلماته... تعقيباته أثناء الحِوار...

وجاءت رغبة عبد الله في العودة إلى الحديث عن مدينة تونس تؤيد ما جال بخاطر محمود، فاستجاب للرغبة. وأفاض في الحديث عن باب سويقة والحلفاوين، وسيدي محرز، وقبّة الهواء بالبلفيدير.

***

عبد الله ومختار وإبراهيم، ثلاثتهم يسكنون الحيّ الغربي من القرية... وعندما فرغت جعبة محمود من الحديث عن «الخضراء» غادر الرفاق العين عائدين إلى منازلهم. وقبل أن يصلُوا الساحة الكبيرة انحاز إبراهيم عن رفيقيه، لأنّه سيعود بزوجته من دار خالتها؛ فتابع عبد الله ومختار سيرهما صامتين كأنّ أحدَهُما لا يعرف الآخر، أو كأنّ الصدفة جمعت بينهُما في طريق واحد. وفجأة أمسك مختار بذراع عبد الله وقال له بما يشبه الهمس:

ـ انتظرني هنا ... سأدرك محمودا قبل أن يدخُل المنزل. ـ لكن ... لماذا.

ـ لا تقل شيئا ... أنا عارف ... مختار العفريت لا يغيب عنه شيء أبدا.

وانطلق عدْوا يخترق الظّلام والسكون دون أن تسمع له حركة أو دبكة، بينما ظل عبد الله مشدوها من المفاجأة، فجلس تحت الحائط ينتظر النتيجة على مضض. وعندما صَفَّقَ محمود دفَّة الباب كان مختار يناديه بصوت خافت:

ـ محمودا . . محمود! . . افتح . . افتح

ـ مختارا . . مالك؟ . . ماذا حصل؟

ـ خير... افتح بسرعة.

فتح محمود الباب في ارتباك. وقد أفزعه مجيء مختار و إلحاحه. وقبل أ ن يسأله عن سبب قدومِه عاجله مختار بقوله:

ـ عبد الله ينتظرنا قرب السّاحة الكبيرة... امش بسرعة...

ـ قُل لي. ماذا حصل؟

ـ لا ... لا تُضِع وقتا... ستعرف فيما بعد.

كانت لهجة مختار الحازمة، وحرصه الشديد، قد أبعدا كلّ تردّد عن محمود في الاستجابة لرغبة صديقه، فصكّ الباب وراءه،

وحث خطاه يتبعه إلى حيث يوجد عبد اللّه. وحاول أن يفهم سببا لهذا النِّداء. إلاّ أن مختارا كان مصرّا على امتناعه ريثما يلتحقان بعبد اللّه.

كان عبد الله ما يزال مستندا إلى الجدار عندما وصل محمود ومختار... فسأله محمود متلهّفا :

ـ ماذا حدث، يا عبد اللّه؟

فاختطف مختار الحديث وقال :

ـ عبد الله لا يعرف شيئا... أنا دبّرت الأمر وحدي... لقد غاظني أنّ عبد الله غيّر مجرى الكلام عندما كنّا نتحدّث عن التكروري.

فقال عبد الله :

ـ في الحقيقة أنا ارتبت في إبراهيم.

ـ إبراهيم ... محلّ ريبة!.. اتّق الله يا عبد اللّه.

ـ لاتنس يا محمود، أنّ والده، شبية النحس، من قدماء المحاربين، ممّنْ دلّلتهم فرنسا. ثم لا تنس أنّه يملك الدكّان الوحيد لبيع التبغ والتكروري في القرية.

كان مختار يدور حولهما كأنّه جمل الناعورة، بينما محمود يحاول إسكات عبد الله حتّى يعطي رأيه. ولكن عبد الله لم يسكت فأضاف :

ـ هل نسيتما يوم أن تطوّع بشهادة زور ضد رئيس الشُّعبة ؛ فكانت سبب إبعاده ونفيه عن القرية؟!

توقَّف مختار عن الدوران حول محوره. وقال يخاطب عبد الله في لهجة جادّة :

ـ قد تكون معذورا في موقفك. لكنَّني أعتقد أن إبراهيم لا يخوننا. إنَّه وطنيٌّ غيور، له ضمير حي ... أمس فقط كُنَّا معا بالمزرعة، كان يغلي كالمرجل ضد المستعمرين وأذنابهم.

ـ أكرّر ما قلته: إنَّني ارتبت فيه... لماذا يؤكد على أن عملنا له صبغة التآمر... إن صدق الرجال يعرف أيام الشدّة...

أمَّا في زمن الرخاء فكل النَّاس وطنيون، أو على الاصح، يتظاهرون بالوطنيّة.

ـ تعني ـ كما يقولون ـ من الحزم سوء الظن بالنَّاس.

ـ ربَّما ... ولكن إلى حدّ ... على كلّ فمن رأيي أن نحتاط قبل أن نقوم بأيّ عمل.

وتداخل محمود بقوله :

ـ رأي مقبول ... فلنتدبّر الأمر ثلاثتنا أوّلا، ثم نتوسّع بعد ذلك في اختيار المشاركين.

كان مختار حريصا كلّ الحرص على إزالة الشبهات عن

إبراهيم. لهذا لم يقنع بما قاله عبد الله ووافقه عليه محمود فقال يخاطب عبد الله.

- طيب... لكن ما ريك - يا عبد الله - إذا أتينا لك بما يزيل كلّ ارتياب عن إبراهيم.

- لي فيكما كلّ الثقة. أنتما تعرفان منزلة إبراهيم عندي. إنما أريد الاطمئنان.

فقال محمود مبتسما:

- اتفقنا، يا عبد الله.

وقال مختار:

- مساء الاربعاء نلتقي. سأنتظركما تحت «الخرُّوبة» بأول الزقاق المؤدي إلى بستاننا. سأكون هنالك عند أذان العشاء.

دكّان أحمد العائب يقع بالجانب الغربي من القرية، يتصدّر بالساحة الكبرى حيث تباع الأغنام، وتنتصب أكوام القمح والشّعير وأكداس الفحم. وتظلل واجهته سقيفة مربّعة اعتمدت ستة من جذوع النخل. أمّا السقف فمن السعف، والحصران القديمة.

الدّكان. يبيع التبغ بأنواعه كما يبيع التكروري والملح والوقيد. ولا يخلو في أغلب الأحيان من الخبز والشّاي والسكر. . الطارمة صنعت من خشب الصّناديق الذي يباع في سوق المدينة الأسبوعي من حين لآخر.

وللدّكان زبائن كثيرون. ولكنّ الصفوة المختارة منهم أولائك الذين يقضون غالب النّهار وجانبًا من الليل قابعين بالسّقيفة يشربون الحشيش ويغتابون النّاس، يطبخون الشاي ويحصون كلّ من دخل الدّكان أو مرّ أمامهم دون أن تخلو صدورهم من تعليق أو نكتة.

... خديجة بنت عمر الحدّاد سرقت دجاجة الجيران طمعا في بيضها الكبير؛ فكانت خصومة الجارتين مجلبة للعار والفضيحة! أبوها ما يزال إلى الآن محدودب القامة خَجَلا وكمدًا.

مصباح الأعور يرى نصف الدنيا فقط. ذهب مرّة إلى الحلاّق كـاد يقصّ أصبعـه... أراد أن يمسح خـدّه الأيسر فجرحتـه الموسى. وانتهى الأمـر إلى مضاربـة وعراك. ولو لا الجبهيّة التي أسعفتهما بالمصالحة لكانا في السجن.

- ابن من هذا؟.. لم أرَ هذا الوجْه من قبل؟

- حتّى أنت، ياسي محمد... النّار تخلّف الرّماد!..

رحمك اللّه، يـا عبد الـرحمان... لوقمت من قبرك لتمنّيت أن تعود إليه.

- آه. فهمت. هو ابن عبد الرحمان الساسي.. سبحان اللّه. الضّرائر يفعلن أكثر من هذا. مسكين لم يسمع نصيحـة أمّه... غلبته أمّ الزين. يا عيني! يا ليلي!

- يكفـي. يا ناس حتّـى الأموات لم يسلموا... اذكـروا الموتى بخير.

- رحم الله من قال: اردم واسكت

وقف مختـار أمـام الـدُّكّـان فحيّ الجالسين، ثم تخطّـاهم، ودخل الحانوت. فسلّم على أحمد العائب وقال له في احتشام:

ـ أين إبراهيم، يا عمّي أحمد

ـ خرج، يا ابني... ألك حاجة معه؟

ـ وردت عليّ رسالة أحببت أن يقرأها لي.

ـ أظن أنّه في المزرعة يتفقّد ترميم البئر.

ـ في أمان الله. يا عمّي أحمد.

ـ في حفظ الله وأمنه.

وذهب مختار تواً إلى المنزل، ففكّ قيد الحمارة وامتطاها في طريقه إلى مزرعة إبراهيم. وهمز حمارته بشوكة حادّة فاندفعت تعدو كالهاربة:

«... يمكن أن يكون عبد الله على صواب في حيطته وحذره.. ولكن محال أن يكون هذا مع إبراهيم...»

وارتخى مشي الحمارة فانغرزت فيها الشوكة من جديد.

«... امشي يا ملعونة! الوقت وقت حزم وجدّ... لوكنتُ على ظهر حصان لوصلت بسرعة...»

وتذكّر يوم العيد!.. دفعه الغرور إلى ركوب حصان لأول مرة. كان يطمع في كيلو جلوى رها ن المسابقة. وما إن استقرّ فوق الظهر الأملس المكتنز حتى ارتعش ونزل متخاذلا يخفق فخسرثمن الحلوى، ولذة الفوز. وفاز بغصّة لم تمحها الايام.

عندما وقفت الحمارة أمام مدخل المزرعة كان الدّم يقطر منها لشدّة ما انغرزت فيها الشوكة، فأحسّ مختار بالإشفاق على حارته فقادها إلى «الرتعة» وتركها تنعم بالظلّ بينما اتّجه إلى حيث يوجد إبراهيم.

كان إبراهيم مستغرقا في الحوار مع العملة، فلم ينتبه إلى مجيء مختار إلاّ بعد أن وقف بجانبه ومدّ يده يصافحه.

ويطول الحوار والنّقاش بين إبراهيم والعُمّال حول ترميم البئر، وما يجب إحضاره من مواد، والمدّة التي يتطلّبها الترميم، فيضيق مختار ذرعا بهذا الحِوار، ويقحم نفسه في النقاش سعيا في إيجاد الحلّ السّريع وفضّ المشكل.

نجح مختار في خطّته واستطاع أن ينتحي بإبراهيم جانبا بحيث لا يسمع العُمّال ما يجري بينهما من حديث. وقال يخاطب إبراهيم:

ـ كيف رأيت حديث عبد الله ليلة أمس؟

ووسط ازدحام الجير والرّمل و الصخور والحديد بذهن إبراهيم برزت له ليلة أمس وحديث «العين» والنقاش حول التكروري، فزوّى ما بين حاجبيه، وأجاب عن سؤال مختار:

ـ أنا على رأيه.

ـ هذا ما أعتقد . لكن يجب أن نحتاط .

ـ ماذا تعني؟

ـ أعني أن أصابع اليد ليست متساوية .

ـ أوضح أكثر.

ـ أخشى أن بعض الاخوان لا يستمرّ معنا إلى النهاية .

ـ وماذا ترى إذن؟

ـ أليس من الأفضل أن تكون البداية في نطاق ضيّق؟

ـ معقول .

وأن نحتاط لحفظ السرّ.

ما في ذلك شك .

ـ أنا عندي فكرة .

فازداد إبراهيم اهتماما . والتفت حواليه كأنّه تـوهّم كأن أحدا سمع . ثم سكت قليلا ، وسأل صديقه :

ـ ما هي هذه الفكرة؟

فقال مختار في شيء من الاعتزاز بالنفس :

ـ أن نكتب صيغة يمين ونوقّع عليها .

ـ هل تحدّثت مع بعض الاخوان؟

ـ مع عبد الله ومحمود .

ـ حسن جدًا .

وسكت مرّة أخرى . وأطرق إلى الأرض ثم أضاف :

ـ ولكن هل ترى من الضروري أن نكتب صيغة يمين؟

ـ أنا مصرّ على هذا .

ـ طيّب . نلتقي الليلة إذن .

ـ لايمكن . خير البرّ عاجله . هل تمانع في كتابتها الآن؟

ـ لا أمانع . لكن كيف؟ حتى الورق لا يوجد هنا .

وضحك مختار ملء شدقيه . ثم قال بحزم :

ـ العرب بالباب ! . . الورقة عندي والقلم كذلك . أنا احتطت للأمر .

وأخرج من جيبه ورقة مطويّة وقلما قصيرا . وقدّمها لإبراهيم الذي أمسك بها، وهو في شبه المفاجأة من موقف مختار . وبعد تردّد قصير قال :

ـ مادمتَ على هذا الحرص وهذا الاحتياط فالأمر كما أحببت .

وذهبا إلى ظلّ زيتونة كبيرة حيث جلس إبراهيم يفكّر في

كتـابة صيغـة اليمين، بينما ذهب مختـار يتفقّد الحرارة و يقـدّم لها شيئا من القرط.

«... ألم أكن على يقين؟ . الحمـد لله. إبراهيـم كما هو... لم يتغيّر ... عبد الله مِشكاك... مشكاك أكثر من اللازم... »

وألقى بنظـرة على إبـراهيم فــرآه مـا يـزال مغـرقـا في التفكير فتشاغل عنـه مدّة، حتّى إذا رآه يلوّح بـالورقة أقبل عليـه مسرعا وسأله:

- انتهيت؟...

فقدّم له إبراهيم الورقة وقال له:

- اقرأ... هل يكفي هذا؟

فأجابه مختار بين الفرح والغضب:

- متى فتح الله عليّ بالقراءة؟ اقرأ أنت.

وقرأ إبراهيم ما كتب:

«... أقسم بالله العظيم ونبيّه الكريم أن أحافظ على العهد، أن أكتم السرّ... »

فقال مختار:

- هذا لايكفي. زد على ذلك مقاطعة التكروري ومقاومته.

وعاد إبراهيم إلى الورقة وكتب« ... وأن أقاطع التكروري الخبيث. وعلى هذا وقعت . . » وتلا صيغة اليمين كاملة على مسامع مختار فأعجب بها؛ وقال:

ـ وقِّع أنت أولا. أمّا أنا فسأضع عليها بصمة إبهامي الملوّثة بالحبرا كما تعرف.

أمسك إبراهيم يتأمّل الورقة يقرأ ما كتبه فيها كأنّه يراها لأول مرة. ثمّ وضع توقيعه بأسفل الكتابة، فابتهج مختار واحتضن إبراهيم بحرارة. ثم قال له قبل أن يودّعه عائدا إلى القرية:

ـ الآن بدأنا مرحلة هامّة... سوف أتّصل بالإخوان فردا فردا للتوقيع على الورقة... إلى اللّقاء.

***

تظافرت جلبة الصراصير، وأصوات البوم ونقيق الضفادع على جعْلِ السكون المخيِّم على الواحة يزداد روعة ومهابة. والشبحان الواقفان تحت «الخرّوبة» تتلاقى نظراتهما محاولة اختراق الظلام، ثم تفترق متأمّلة النجوم من خلال أغصان الخرّوبة أو سعف النخيل. وجاء من بعيد صوت المؤذّن لصلاة العشاء فأبعد مختار جذعه عن جذع الشّجرة وقطع الصمت المخيم:

ـ حان الموعد، ومحمود لم يأت!

ـ اسمع ... اسمع ... أظنه قادما.

ـ خرّف ... سمعك دائما يخونك.

ـ كيف؟

ـ لا أثر لأي قادم.

فقال عبد الله بعد أن حدّق في الظّلام وأمال رأسه يتسمّع:

ـ هذه المرّة صدقت أذني ... انظر! لقد أقبل.

ووصل محمود فعلا، فصافحاه بحرارة. إلاّ أنّ حلكة اللّيل لم تسمح بالإفصاح عمّا علا وجهيهما من انشراح وانبساط. وسارت الأشباح الثلاثة في طريقها إلى «سانية» مختار دون أن يتطرّق أي واحد منهم إلى الحديث عمّا التقوا من أجله. حتى إذا انتهى بهم السير إلى كوخ السانية لم يصبر عبد الله أكثر، فسأل رفيقيه:

ـ هل من جديد؟..

فقال محمود:

ـ أمّا أنا فلا شيء عندي ... إنّك تعرف أنّني ذهبت إلى «الحامّة» صحبة جدّتي التي اشتد بها المرض منذ فجر اللّيلة التي افترقنا فيها، ولم أعد إلى القرية إلاّ عصر اليوم.

وقال مختار:

ـ إبراهيم متّفق معنا ... وفي إمكاننا أن نعمل من الآن.

وعقّبَ عبد الله على كلامه:

ـ كان اتّفاقنا يعني شيئا آخر.

ـ ما أعجبك! . . هو ما أعنيه بالضّبط. هل يكفيك برهانا أن إبراهيم هو الذي كتب بيده صيغة اليمين ... ولم يكتف بذلك بل وقّع عليها قبل كلّ أحد.

فصاح محمود مبتهجا:

ـ عال ... عال ... هذا يكفي لتوريطه إذا ضعف أو تراجع ... إنك عفريت، يا مختار.

وقال عبد الله في لهجة المعتذر:

ـ يبدو أنّني أسأت الظن كثيرا بإبراهيم ... على كلّ حال لم نخسر شيئا.

التفت محمود إلى مختار، وطلب منه الورقة التي كتبت فيها صيغة اليمين. فقال له:

ـ وكيف؟ . . أتبصر في الظّلام؟

وألحّ عبد الله على معرفة ما في الورقة، وأن يقع التوقيع عليها

الآن. فرجا مختار منهما أن ينتظرا حتى يذهب إلى القرية، ويشتري شمعة ووقيدا، فقد نسي أن يأتي بذلك من قبل. إلاّ أنّه لم يغب إلاّ لحظات حتى رجع ... لقد تذكّر أن لديه بقيّة شمعة مع أعواد من الوقيد خبّأها في حقة قصدير منذ مدّة، فدخل الكوخ، وأخذ يتلمّس السقف بيديه حتى عثر على حقة القصدير.

كانت الرطوبة قد أثّرت في كبريت الوقيد، فتفتّتت أربعة رؤوس قبل أن يتمكّن مختار من إيقاد بقيّة الشمعة. وبدت لهم ذبالة الشمعة كأنها بهر الشمس لطول بقائهم في الظّلام. وأمسك محمود بالورقة يلتهم ما كُتب فيها، فسُرّ عبد الله بصيغة اليمين، وصافح مختارا بحرارة على مهارته وحذقه. ثمّ وقّع كلّ من عبد الله ومحمود بجانب توقيع إبراهيم. أمّا مختار فلم يمكنه وضع بصمة إبهامه لانّه لايوجد عندهم حبر. وأراد أن يبيّن لهما مهارته. وأنّه لا يعدم الحيلة في مثل هذه المواقف فاقترح أن يقتلع عروقا من «الفوّة» يصبغ بها إبهامه. إلاّ أن عبد الله قال له:

ـ لا داعيَ للعجلة. الورقة عندك. وأنت حافظ السرّ. وعندما تعود إلى القرية اغمس إبهامك في المحبرة ووقّع حيث شئت:

وفـرك محمـود يديـه . ثمّ وضعهما على كتِفَيْ عبـد الله ومختـار وقال لهــما :

ـ ينقُصُنـا الآن شيء واحـد . لماذا لا نطلق على جميعتنـا اسما خاصًا بها ؟

فعقَّب مختار بسرور طافح :

ـ إي . والله العظيم ! . . فكرة ممتازة .

فقال عبد الله

ـ أعتقد أنَّ العمل أشرف وأهم من الأسماء والصّفات . . .

المهمّ أن نتابع خطّتنا . وليكن مـا أردتم . . . عملنا وإخلاصنا هما الإنقاذ . . . هما الجمعيّة . . . هما كلّ شيء .

وقال مختار :

ـ إذن سنطلق على أنفسنا اسم «جمعية إنقاذ الشَّباب»

الماء يتدفّق فوّارا من حلقوم «العين» . والرّفاق ملتفون من حول الحوض يعلوهم صمت الانتظار وحيْرة الترقّب ، والنّظرات تتّجه نحو القرية بين الحين والحين . ثم تتلاقى الوجوه مستفهمة مستفسرة ! ...

لماذا تأخر مختار عن الموعد ؟ !

وتختلف الآراء والتّكهنات حول أسباب هذا التأخير .

عبد الله أكثر الرفاق اضطرابا ! ... أشدّ ما يخشاه أن يكون مختار قد ناله مكروه يحول بينه وبين القيام بدوره الفعّال في جميعيّة إنقاذ الشّباب . أمّا محمود فكان أكثر اطمئنانا . لهذا رجا منهم أن يدلي كلّ واحد بما تجمّع لديه من معلومات عن زراعة التكروري بالمنازل في القرية ، أو بالسّواني في الواحة . وظهر ممّا ذكروه أن ستّ سواني يوجد بها التكروري . أمّا المنزل فيوجد في أربعة منها فقط .

وساد الصّمت في انتظار الكلمة من محمود:

- يجب أن تتمّ العمليّة في ليلة واحدة. ومادام مختار لم يضف إلينا شيئا جديدا لحدّ الآن فالأمر واضح. إلاّ أنه ينبغي تأخير التنفيذ بالنسبة إلى المنازل.

فقال عبد الله مهتزّاً:

- اتّفقنا على أن يكون التنفيذ في ليلة واحدة.

- لم أقل ما يخالف هذا التأخير! الذي أعنيه هو وقت التنفيذ في اللّيلة نفسها.

- لكن كيف نبدأ ومختار لم يأت؟

- وسّع بالك، يا عبد الله! نحن في انتظار مختار. لكن لا يعني هذا ألاّ نتدبّر الخطّة حتّى يأتي.

- أمر يدعو إلى الدّهشة!.. المعروف أن الحكومة هي المشرفة على زراعة التكروري. وكلّ من تعثر عليه يزرعه خفية تسلط عليه العقاب... فكيف تجرأ هؤلاء على زراعته؟... السّبب معروف!...

وسكت خميّس عن متابعة كلامه؛ فاشرأبّت إليه الاعناق تستزيده تفصيلا، إلاّ أن عبد القادر تولّى شرح ما أجمله خميّس:

ـ قبل سنة كان لا يتجرأ أي إنسان في كل الجهة على زراعة بذرة واحدة منه؛ فلمّا جاء المدير الجهوي الجديد لإدارة الإختصاصات أتى معه بسياسة ماكرة: أمر بالتخفيف من التَفتيش، وطلب من مساعديه أن يغضُوا الطرف. ويهدف من وراء هذا إلى الزيادة من ترويج هذه الحشيشة حتَّى إذا تمكَّنت من النفوس شدّد في منع زراعتها وأمعن في مراقبتها.

فقال محمود:

ـ إذا كان الأمر كما قال عبد القادر وقمنا نحن بعملنا فهل تتوقَّعون أن اولائك «الزراع» لا يشتكون إلى الحكومة؟..

وردّ عليه إبراهيم:

ـ لا أعتقد ذلك. إنّهم يخافون سوء العاقبة.

وقال عبد الله:

ـ وإذا نجحت خطّتنا وبلغ خبرها إلى السلطة ألا تعتبر ذلك عملا جماعيا وتآمرا. وإنّه إذا اتّجه هذه المرّة إلى مقاومة التكروري فقد يتَّجه في يوم مّا إلى أشياء أخرى؟...

فعقّب إبراهيم:

ـ اهتمام السلطة بالأمر لا شكّ فيه. أمّا ما وراء ذلك فموقوف على مدى إيماننا، وإحكامنا للعمل، وكتماننا للسرّ.

«... هل أصبح أشجع منّي؟ ... لإن الصدق يبدو في لهجته وكلامه... تنبت النّوارة في المزبلة... أحمد العائب ينجب مثل إبراهيم... المجتمع أقوى... الوطن أشدّ تأثيرا من الأسرة...»

وأقبل مختار، فانقطع عبد الله عن هواجسه. وابتهج مع بقيّة الاخوان بوصول مختار الذي أمطروه أسئلة عن أسباب تأخُّره. وتعجّبوا حين عرفوا أن السّبب في ذلك يعود إلى أنّ أمّه أجبرته على البقاء في المنزل حتّى تنتهي خالته من الزيارة، فيصحبها إلى دارها لتعطيه نصف ويبة قمح ستنكبّ أمه على تنقيته وطحنه صباح الغد.

واتجهت الانظار من جديد إلى محمود تنتظر منه الكلمة:

ــ التنفيذ يقع ليلة غد، مختار وخميس، مكلفان بالمنازل. ونحن الاربعة مكلفون بالسّواقي. أنتم تعرفون سرّ اختيار مختار وخميس لاقتحام المنازل.

ثم حُدّدت مسؤولية كل واحد على أن يكون التنفيذ في الفترة الممتدة من صلاة العشاء إلى منتصف الليل. أما اللقاء فحول «العين» بعد التنفيذ.

***

«... دور بسيط لم يكلفني مشقــة ... نبتة واحــدة حرص صاحبها على أن تكـون مستوردة الكرمة ... حتى في اقتلاعها لم أبـذل جهـدا ... كانت الارض رخـوة بعـد أن شَبِعَتْ مـاءً قُبيل الغروب ... على كل! لعلّها حلقة من سلسلة ...»

كـان ابـراهيم أسبق وصــولا إلى «العين» فلم يجد أحدا من الرّفـاق . ولم يلبث أن توافدوا واحـدا بعد آخـر وقصّ كل واحد منهم كيف قـام بتنفيذ مهمّته . مـاعدا عبـد القادر الـذي تعذّر عليه ذلك، فقال موضّحا :

ـ لم أتمكّن من التنفيذ، لأنّ صاحب السّـانية كان موجودا إلى زمن قـدومي عليكم ... من سـوء الحظّ أن نوْبـةَ السقي كـانت ليلية .

فقال إبراهيم في حماس :

ـ اتركوا لي ذلك . سأذهب قبل الفجر لتنفيذ الخطّة .

واعترض عبد القادر في امتعاض :

ـ شكرا، يا إبراهيم! أنا ما تخلّيت عن دوري .

وقال عبد الله متأففا :

ـ مثل البارحة! . . تأخّر مختار! . . يا ساتر

فعقَّب عليه محمود:

ـ لاتخف. مختار مثل القط، لا يزلق.

وصاح خميّس مبتهجا:

ـ عمره طويل.. ها هو ذا قادم!

وقبل أن يسألوه عن تأخره بادرهم بقوله:

ـ ما أحببت أن أعود إليكم دون أن أنفّذ ما التزمت به. وكان هذا يقتضي وقتا أطول.

فقال إبراهيم مستهزئا:

ـ حتى مع حميدة الساسي! منخور الصَّدرا!..

فقال مختار:

ـ اسمع القصَّة. واحكم بعد ذلك.

وطلب من الرّفاق أن يحيطوا بـه، ويرهفوا أسماعهم... وبدأ القصَّة:

«... تسلّقت الجدار المتهرّىء بسهولـة. لكن مـا إن أطللت بـرأسي مـن فـوق الحائط حتّى انتبـه كلبـه الأحمر وهجم عليّ،

فتراجعت وارتميت على الأرض فكاد ينـدك عنقي . ثمّ سمعت هرير حميدة الساسي وسعاله ، فأيقنت أنّه أفاق من نومه ، لهذا فضّلت الكفّ عن المحاولة حتى أهيّء خطة للتحايل على الكلب ... »

وسكت مختار لحظة فانفتح باب التعاليق .

قال خميّس :

- أصبحت حكاية

وقال عبد القادر:

- كلب حميدة الساسي شرير كاد يعضني مرّة لو لم ينقذني حميدة الساسي نفسه ... كلبه دائماً جوعان .

وعاد مختار يتمّم حديثه :

« ... لم تطُل بي الحيرة ... اهتديت إلى حيلة ... . أن أحارب هذا الكلب بالتكروري ذاته ... هرولت إلى منزلنا . ومن حسن الحظ وجدت العجوز نائمة ، فدلفت إلى مخزن المؤنة وأخرجت من الزّير قديدة كبيرة وغمستها في حثالة سمن كان راسبة بقاع الجرّة . ثم لوّثتها بكمّية من التكروري المدقوق كانت مخبّأة عندي منذ زمان . وعدت على عجل إلى منزل حميدة الساسي .

صعدت الجدار. وتعمّدت إثارة الكلب هذه المرّة. وعندما هجم علي ألقيت إليه بحميسة فانقضّ عليها وازدردها. وأتبعتها بثانية وثالثة ورابعة. ثم ألقيتُ إليه ببقيّة القديدةِ ونزلْتُ. وجلست تحت الحائط انتظرُ النّتيجة.

وبعد نصف الساعة - تقريبا - تسلّقت الجدار وانتصبت فوقه؛ فلم أسمع للكلب هريرا أو نباحا فتأكّد لديّ أنّ التّكروري أثّر في الكلب فأقدمت على النزول داخل الحوش. وصادف أنّي نزلت بزريبة المعيز التي ارتاعت لهبوطي بينها. ثم عادت بسرعة إلى هجوعها.

بقيت لابدًا بين المعيز إلى أن بات الحِسّ، فقمت ومشيت على أطراف أصابعي حتّى وصلت الحديقة الصّغيرة بجانب البئر واستطعت أن أميّز في ذلك الظّلام بين شجيرات التّكروري الثّلاث بين شجيرات الفلفل؛ فاجتثثت شُجَيْرَاتِ التّكروري وبعثرتها وسط الحوش بعد أن فتتت أوراقها وهشمت فروعها. ثم دعاني الفضول إلى البحث عن الكلب فوجدته جاثما، منحني الرأس، يغط في سطلته! حتّى أنّي هممت بركله لولا أنّي خشيت أن يُفيق وأقع في ورطة.

والغريب - يا جماعة - أنّه خطر على بالي في تلك اللّحظة كلاب أحمد الحنّاشي. فتساءلت: هل تشارك صاحبها في

سطـلاتـه؟ هل يتكـرَّم عليها بسببي بين الحين والآخـر؟ مـادام يحبها ويؤثرها على نفسه ... »

كان الـرّفاق ينصتون إلى مختـار إنصاتهم إلى أعجب القصص وأغرب المغامرات . فلمّا سكت ظلـوا صامتين كأنّهم يستزيدون منه الحديث لو لم يقطع محمود ذلك الصمت بقوله :

ـ ألم أقل لك ـ يا عبد الله ـ إن مختارا مثل القط لا يزلق ! حتى في اللحظة الحرجة لا ينسى الدّعابة والنكتة .

فقال عبد الله :

ـ بصراحة أقول : لو كنت أنا مختار لفشلت في مهمّتي .

وعقب عليه مختار متخابثا :

ـ الأمر سهل ! كن قطًّا . وسوف لا تفشل .

وأغـرق الإخوان في الضّحك . وتبـاروا في التنكيت فأسكتهم محمود بقوله :

ـ لعلّـنـا كلّنا نشعـر بنشـوة الانتصـار... إنّـه عمل في سبيل الخير... لكن الـذي أوصيكم بـه هـو أن نحتـاط أكثـر من ذي قبل ... قـد يشيع الخبر في القـرية ، فيجب ألاّ نظهـر الاكتراث

به... يجب ألاّ نغيب هذه الأيّام عن سهراتنا بالمقهى وعن لعب «التريسيتي» و«الدّومينو».

وقبل أن يتفرق الرّفاق قال لهم عبد القادر:

ـ ناموا مطمئنّين، فقبل مطلع الفجر سأنفّذ ما كلّفتموني بكلّ دقّة.

♣

«... ليلة الاثنين! . . إنّها بطولة من الإخوان... أصبحت كلّ القرية تتحدّث ... تزايدوا في الأخبار والشائعات . اندفع خيال القرية يخترع ... يبني ويهدّم ...»

ومسح إبراهيم فمَه بعد أن أنهى عشاءه. وقام يتمشّى وسَط الحوش ويداه مدسوستان في جيوبه؛

«.. أمّا عجائز القرية فكان أمرهنّ أكثر غرابة . بعضهنّ يقول: إنّه من عمل «الصّالحين» الذين أشفقوا على هذه القرية وعلى أبناء آخر الزمان من هذه الحشيشة الفتّاكة... ورأت إحداهن في منامها أن مجموعة من عصافير الجنّة حومت فوق القرية، وجاست خلال الدّيار حاملة في مناقيرها أغصان الريحان والياسمين .. وذاع في القرية أن إمام جامع سيدي محرز بتونس سلّط اللعنة على التكروري وعلى

مدخنيه واعتبره أشدّ حرمة من الخمرة؛ لأنّه أكثر ضررا بالإنسان وبعقله وماله ...»

وضحك إبراهيم، وهو يقول:

«... لعلّ الإمام نسي شيئا! أن التكروري يتنافى مع الشهامة والرّجولة ... إنَّه يجعل متعاطيه أجبن مخلوق على وجه الأرض، يخاف من كل شيء ويخاف من لاشيء ...»

واندسّ في ظلام السقيفة ثم خرج إلى الشارع في طريقه إلى المقهى. وقبل أنْ يتوغَّل في طريقه فوجىء بسيَّارة قادمة إلى القرية لم تقف بساحة السوق ولم تعرّج على منزل شيخ التُّراب، بل اقتربت السيَّارة منه. ثم وقفت أمام دكَّان والده. ونزل منها جندرميان ودخلا الدكَّان؛ فاستراب من قدومهما في هذا الوقت وتوجههما إلى حانوت والده، فعاد أدراجه إلى المنزل. ووقف في ظلام السقيفة يفكِّر. ولم يلبث أن رأى والده يدخل الدار من الباب الواصل بين الحوش والحانوت يتبعه هذان الزائران! ودخل ثلاثتهم «المخزن» وأطبقوا وراءهم الباب؛ فازداد إبراهيم شكًّا وريبة من هذه الزّيارة ومن هذه الخلوة بين والده ورجال الجندرمة.

«... لماذا أتى هؤلاء الكلاب؟! هل لزيارتهم صلة بما حدث في القرية منذ أسبوع؟.. يجب أن أعرف ذلك ...»

وتجرأ على استراق السمع ومعـرفة مـا يدور في هـذه الخلوة، فـاقترب من بـاب المخـزن حتى التصق بـه. وسمع، وهـو يرتجف:

- هل من خبر جديد، ياسي أحمد؟!

- لا جديد، يا مسيو جوزاف.

- ألم يُعرف - لحدّ الآن - من اقتلع التكروري؟.

- أمر غريب، يا مسيـو جوزيف! هذه أوّل مرّة يخونني فيها الحظ عن مساعدتكم فيما تريدونه من معلومات.

- نحن نعرف إخلاصك وحُبّك لفرنسا.

- الله يبقي دولتنا الرّحيمة.

- ألا ترى أن العمل قامت به جماعة؟

- بدون شكّ. إنّـه يعسر على شخص أو شخصين القيـام بكل ذلك في ليلة واحدة.

- هذا يدعو إلى زيادة التّحرّي... هل سألت ولدك إبراهيم؟

- عدّة مـرّات. كـان جوابـه سلبيـا دائما. لـو كان يعـرف لأعلمني. إنّه ولد مطيع.

ـ أوه، يـا سي أحمد! . . نعرف... نعـرف. وهل يـوجـد في بيتك من لا يخدمنا؟. .

وقال الجندرمي فرنسوا:

ـ بلغنا أن امرأة صنعت قصيـدة تهاجم فيها التكروري. الا يكون لهذه المرأة صلة بالقضيّة؟

ـ لا. أبـدا. إنّها «درويشـة» تقـول الشعـر في كل شيء. تصـوّروا أنّها هجتْ ـ مـرّة ـ الـرّعـد وشنّعت بـه لمّا بلغهـا أن صـاعقـة سقطت على نخلـة «الكنتـة» التي بسـاحـة السـوق وقتلتها.

وعلت ضحكـة بينهم، زادت من غضب إبراهيم وحنقـه، قال بعدها والده:

ـ على كلّ حـال سأبذل كلّ جهد. وأخبركم بكلّ جـديد. وكما اتّفقنا يا مسيو جـوزيف، أريد أن ينحصر الموضوع بيننا؛ حتّى شيخ التّرّاب لا أريد أن يعرف.

ـ طبعـا! طبعـا! . . وهل نعـوّل على غيرك في هـذا... نحن دائما في حـاجـة إليـك... اسمع، يـا سي أحمد، ورأس أولادي

سوف أطلب من السيِّد المراقب أن يمنحك وساما جديدا في عيد 14 جويلية القادم.

- مرسي . مرسي، يا مسيو جوزيف . كونوا على اطمئنان. إنَّني في خدمتكم دائما... لا بدّ من الوصول إلى نتيجة.

وشعر إبراهيم بأنّهم يستعدون للخروج فانسحب مسرعا، ولَبَدَ في ظلام السقيفة حتّى خرجوا من المخزن ودخلوا الحانوت. وبقيَ في ظلام السقيفة يغلي كالمرجل. يفكّر ماذا يفعل مع هذا الوالد «الخائن»! ولم يطق صبرًا فمشى نحو باب الحانوت علّه يسمع حديثا آخر. إلاّ أن محرك السيَّارة دوّت به أرجاء الحيّ فرجع إلى السقيفة. ثم خرج إلى الشّارع في طريقه إلى المقهى.

«... خائن! ... بيُّوع ... هو وحده محلّ سرّ الجندرمة... يالها من ثقة غالية! . . فهل أصبح مخلصا لطغاة المستعمرين أكثر من شيخ التراب؟ . من أجل أي شيء هذا؟ . . قصديرة يلطخ بها صدره! . . رخصة لبيع التبغ والتكروري... ابتسامة صفراء من الجندرمي أو المراقب المدني... واليوم! ... هل بلغ ثمّة الخيانة؟ ... إنّه يعدهم بالبحث عمّن قام بالحملة ضدّ التكروري! لا... لا... لايمكن... لا يمكن أن يصل إلى نتيجة...»

ولاح لإبراهيم ضوء المهقى منبعثا من الباب يمتدّ على طول السّاحة مسرّبا من نور يبتدىء ساطعا ضيقا عند مدخل المقهى ثمّ يأخذ في الاتّساع والضآلة شيئا فشيئا إلى أن يتلاشى وسط الظّلام المخيم على القرية.

وشرعت قدماه تطآن مسرب النور. وجهر عينيه ضوء الفنار؛ فالتفت إلى الوراء يتّقي الضوء ريثما تتهيأ عيناه بعد أن مكثتا أكثر من ساعة في الظلام. وعندما التفت إلى الوراء رأى ظلّه عملاقا طويلا يمتدّ مع مسرب النور إلى نهايته.

كم مرّة أبصر فيها إبراهيم ظلّه؟.. كم لعب بذلك الظل مع أترابه في القرية على ضوء القمر والمصابيح أو على إشراقة الصّباح وإيماضة الغروب؟..

كم شَاهد هذا الظلّ بعد أن صار شابا ناضج الفكر قادرا على التمييز؟ كان يرى هذا الظل فيدفع به إلى اللّعب واللهو عندما كان طفلا. وكان يرى هذا الظل فلا يثير فيه انتباها، ولا يدفع به إلى اللّعب عندما أصبح شابًا. أما هذه المرّة وفي هذه اللحظة بالذات، فقد بدا له هذا الظلّ موحيا، مثيرا.

لم يرَ فيه إلاّ شبح خيانة والده يلاحقه عملاقا مخيفا. ولم يرَ فيه إلاّ سجلا حالك السّواد مشوّه الصفحات، ترتسم فيه خيانة هذا الوالد إلى الأبد.

وتثاقلت خُطاه، وهو يتقدّم من المقهى، كأنّه يتوقّل جبلا صعبا. ثم اجتاز العتبة فاحصا كلّ أركان المقهى في ذهول كالبدوي الساذج يدخل مقهى المدينة لأوّل مرة. وفجأة انبعثت من خميّس تحية صارخة أخرجت إبراهيم ممّاً كان فيه إلى واقع المقهى، فتكلّف ابتسامة باهتة. وتقدّم صوب خميّس ليجلس بقربه. وإذا خميّس يصيح في وجهه

ـ إيه! مالك، يا إبراهيم؟ تعفس الحصير بحذائك، والنّاس على طهارة!... اخلع نعليك.

فانتبه إبراهيم ورجع القهقرى. وانحنى يفكّ رباط الحذاء، وهو يقول في نفسه «هل وصلت إلى هذا الحدّ؟ يجب أن أنسى الموضوع إلى حينه ... هذه رعونة ... حمق ...»

ثم استوى قائما ومشى على الحصير حتى مجلس خميّس فقعد قريبا منه.

كان خميّس مشغولا بمتابعة لعبة «دومينو» حامية الوطيس فمدّ يده اليسرى إلى إبراهيم يصافحه دون أن يرفع رأسه عن أحجار «الدومينو» وعن «القفلة» المحكمة التي يبيتها صالح في منازلة محمود. ثم علت الضّجّة بهزيمة محمود، فالتفت إذ ذاك خميّس إلى إبراهيم وهمس في أذنه:

ـ كلاب الشَّوك في القرية!!!

ـ عندي خبر.

ـ تُرى ماذا وراءهم؟

ـ ما وراء الكلاب.

ـ يقال: إن من ضمنهم المارد «جوزيف».

ـ لا تفاصيل عندي... الوقت غير مناسب.

***

حـاول إبراهيم أن ينسى ما هو فـيه فشغل نفسه بلعبة «تريسيتي». إلا أنه لم يستطع الاستمرار؛ فقد أحس بصداع عنيف كاد ينشقّ له رأسه فاعتذر عن متابعة اللّعب. وغادر المقهى عائدا إلى المنزل.

«... ماذا سأفعل في المنزل؟... منزل الغدر والخيانة!.. إنَّه نجس... موبوء... ماذا يكون موقفي مع رفاقي إذا كان والدي هو الواشي؟.. هل يصدّق الرّفاق بأنّني لم أخنهم ولم أبعهم؟ مستحيل... لا... يجب أن يتلقّى هذا الوالد درسا لن ينساه

... يجب أن يعلم أن شرفه مع أمّته ... مع وطنه ... مع أبناء جنسه ... »

وتوقّف مرّات قبل أن يدخل المنزل ... تردّد كثيرا ... فكّر ثم دبّر ... أخيرا عزم على تنفيذ ما قدّره بعد أن يأخذ كلّ احتياطه .

ودخل الحوش المجلّل بالسكون دون أن يغلق باب المنزل حتّى لا تسمع لدخوله حركة ...

غرفة والديه مطفأة الأنوار ... بيته لا يبدو عليه أي شيء يدلّ على يقظة زوجته . تسلّل إلى غرفته في الظّلام الدّامس يبحث عن حُقّة الوقيد ... كان نفَسُ زوجته المرتفع هو الحسّ الوحيد المسموع في السكون المخيم . . زوجته «محبوبة» في شهرها الثامن ! إنّه ينتظر معها أوّل مولود لهما ... فهل تنزعج إذا نفذ خطته ؟! . . هل تصاب بإجهاض فيخسر الصفقتين ؟! ... وتراءت له الأشرطة المتناقضة : العار ... الضمير ... أمه ... أبوه ... الخائن ... اليسوع ... لا ... لا تناقض ! ... وضغط حُقّة الوقيد بشدّة بينما كان يجتاز العتبة إلى الحوش ...

ورجع إلى الغرفة مرة أخرى ، وأخذ يتحسّس «الفنار» عمّا إذا كان به نفط .

وحرّك «الفنار» فقدّر أنّه مملوء إلى النصف فحمله معه وعاد إلى الحوش يبحث عن خرقة، حتى إذا عثر عليها لفّها بطرف العصا التي كانت عنده فأصبحت تشبه دبّوسا غليظا. ثم أراق عليها النفط. وأعاد «الفنار» إلى مكانه.

من أين يدخل الحانوت؟... ليس لديه مفتاح! المفتاح لا يسلّمه والده لأحد... إنّه لا يفارقه. عندما ينام يضعه عند رأسه تحت الوسادة. المنفذ الوحيد للحانوت كوة صغيرة مرتفعة لا تسمح حتى بدخول هرّة.

بعد تفكير طويل اهتدى إلى تلك الخرقة التي لفّها على العصا في شكل كرة صغيرة. إنّها الوسيلة الوحيدة التي تمكّنه من تنفيذ خطّته.

وجاء بخشبية عريضة فأسندها إلى الجدار. وصعد عليها حتى أصبح في مستوى الكوة الصّغيرة. ثمّ أوقد النّار في الخرقة. وأمسك بالطرف الآخر من العصا. وأدخل الكرة المشتعلة في الكوة إلى أن اجتازت سمك الجدار. وجعل يحرّك العصا بشدّة حتّى سقطت الخرقة داخل الحانوت. ثم ألصق عينه بالكوة ليتأكّد من بقاء الخرقة مشتعلة.

لم يرَ شيئا أوّل الأمر، فأبعد وجهه عن الحائط كي يستريح

قليلا. ثم أعاد النظر فلمح بصيصا من الضوء وسط الظّلام الدّامس. وبعد أن تأكّد لديه أن الخرقة لم تنطفىء نزل وأسرع بوضع الخشبة في مكانها الأوّل ورجع يرقب الكوة الصّغيرة.

اشتدّ قلق إبراهيم. وتعبت عيناه من شدّة التحديق قبل أن يبدأ خروج الدّخان من الكوة. ثم سمع طقطقات وقرقعات خفيفة داخلَ الحانوت فجزم بأن النّار أخذت في الاشتعال وابتدأ الحَريق المنتظر، فعلته موجة من التشفي والارتعاش. وأسرع يطرق الباب على والده ويصيح: النّار!... النّار!... حَريق!... حَريق!... ثم اتّجه إلى غرفته ليوقظ زوجته برفق مخافة أن يصيبها هلع فيؤثر في حملها. وانطلق بعد ذلك إلى البئر يملأ الحوض بالماء استعداد لإطفاء الحريق، بينما خرجت أمه وزوجته مذعورتين تصيحان وتصرخان على عادة ما تقوم به نساء القرية كُلّما نشب حريق في أحد المنازل. أمّا أبُوه فقد تأخّر خروجُه من الغرفة لأنّ الأمر التاث عليه، فلم يستطع لبس رجله الخشبيّة إلا بعد عناء ومشقّة، وبعد أن احترق الباب الداخلي للحانوت وأصبح لهب النّار والشّرر في الحوش ذاته.

وعجّ الحوش بالجيران الذين استيقظوا من نومهم على صياح «محبوبة» وعمّتها؛ فأقبلوا مسرعين للنجدة يحملُون

القلال والمساحي والمكاتل، واندفعوا صوب النَّار يطفؤونها: هذا يحفر الأرض وذاك يرمي بالتراب، وهذا يريق الماء وذاك يخبط النَّار بقضيب من حديد أوْ بالسعف الأخضر، وتسلَّلت النِّساء إلى الغرف بعد أن كشفتهن ألسنة اللَّهب أمام الرِّجال... وتظافرت الجهود وتتابعت... وسال العرق على الجباه والصدور والزنود، وابتلَّت الملابس، وتلطَّخت الأيدي والأرجل بالوحل والرَّماد. ولكنَّ النَّار كانت أقوى من كل ذلك فأتت على ما في الحانوت جميعه، وأكلت خشب السقف فسقط وانهار. ثم أخذت ألسنة اللَّهيب تتقلَّص شيئا فشيئا بعد أن فقدت النَّار طعامها، والتهمت بشراهة ما وجدته أمامها.

***

عندما بدأت تباشير الفجر تغمر الكون وتوضِّح الأشياء كان أحمد العائب ما يزال قابعا حزينا قرب البئر. وقد امتدّت رجله الخشبيَّة أمامه، وهو ينظر في لوعة وأسى إلى بقايا الدّخان المتصاعد من تحت أنقاض السَّقف المنهار. أمَّا إبراهيم فكان يجمع بقايا الأخشاب المحترقة ويكدّسها وسط الحوش حتَّى تجمَّع منها كوم كبير. وكان طيلة انهماكه في جمع الأخشاب ينظر إلى والده الحزين المكدود ويرشقه بنظرة

الشـامت الحانق حينـا، ونظـرة العطـوف المشفق حينـا آخـر. وطال به الصّراع بين التَّفَشّي والنَّدامـة والشّماتة والاشفاق إلى أن خمد آخـــر لهيب وامّحى آخـــر دخـــان ينبعـث من تحت الأنقاض، فاتَّجـه إبراهيم إلى والده يسلّيه ويقول له:

- قضاء نزل. ولا مردّ لقضائه.

- حيرتي! كيف وقعت الكارثة؟!..

- لا راد لحكم الله.

ــــ أمس فقط وصلتني «قطعيـــة» الشّـــواقـر والنَّفَّـــة والتكروري. لم أفتحها، والله. أتمشي هكذا طعمة للنار!!!

- المهم أن تسلم أنت.

- وهذا المال المخسور!؟..

- حشيشة استراح منها النّاس... يخلفها الله.

فخزر أحمد العــائب إلى إبـراهيم غـاضبـا، وقـد ارتعش شارباه. وقال له:

- أشامت أنت بي؟..

ـ لا. وإنّما شامت بالتكروري.

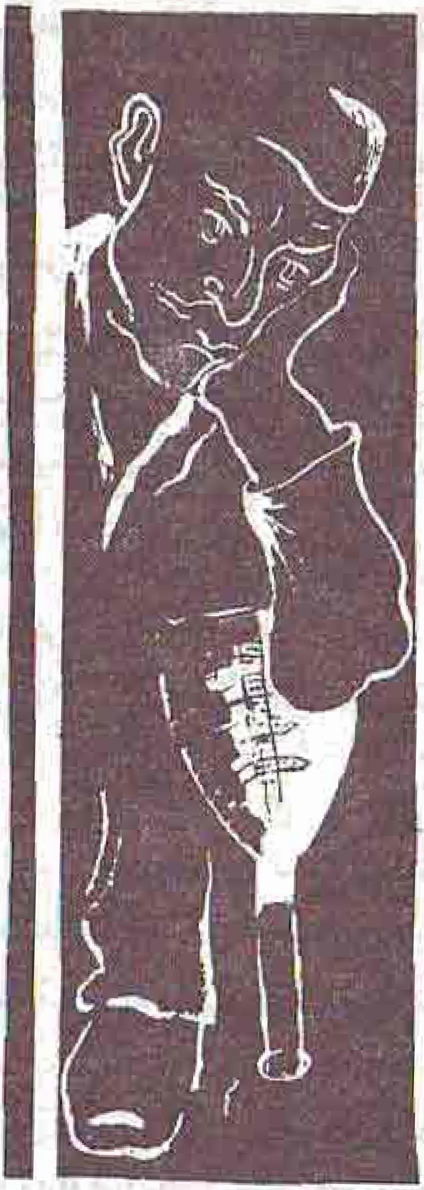
ـ هل أنت منهم؟! ...

ـ يا ليت!

ـ خـذ بالك! يـا طفل... تجنَّب الأشرار... اعمل عقلك... أعوذ بالله... لا حول ولا قوّة بالله. هداك الله، ياطفل.

وفار الدّم في رأس إبراهيم فتملّكـه الغضب واسودّت الدنيا أمـامـه. وقـال في نفسـه«... مصيبتـان في لحظـة واحـدة!.. فليتحمّلهـا. وليكن ما يكـون، فلعلَّ الظـروف لا تسمح فيما بعد...» وازداد ارتجاجه وخفقـان قلبه، وهو يتقدّم نحو والده ليقول له:

ـ اسمع، يـا بابا. لا نُطيلُهـا وهي قصيرة... يجب أن تعرف أن ما أصـابك اليوم منّي أنا، من ابنك الـوحيد... اعلم أنّني العـدوّ الألدّ لتلـك الملعونـة الخبيثـة. لقد سمعتـك البارحـة تتحدّث مع أسيـادك... مع جوزيـف وفـرنسـوا. سمعت كل شيء... حتى الوسـام الجديد الـذي سيعطيكه المراقب المدني. هل عـرفت الآن؟.. لا تتّهم أحـدا... وليكن هـذا بيني وبينك... كُفّ عن تعـاونك مع الكـلاب وإلاّ خسرتني أبـد الـدّهـر... سأنتحـر... سأمـوت إذا تماديت في مسلكك



كان أحمد الغائب ما يزال قابعاً حزيناً
قرب البئر، وقد امتدّت رجله الخشبية أمامه

المشين ... والخيار لك ... خبّر عنّي إذا شئت ... قل لأسيادك أنا الذي حرق الحانوت ... أنا العدوّ اللدود للتكروري ... إنَّك مسؤول أمام الله ... اعمل عقلك، ماذا بقيَ من عمرك؟ ...

وغُصّ إبراهيم من شدّة الغيظ، فلم يزد كلمة أخرى بينما ظلّ أبوه ساهما، مطرقا إلى الأرض لا يحير جوابا ولا يبدي حراكا. وهمّ بتوجيه كلام آخر إلى والده، وإذا عيناه تفيضان بالدّمع. وحلقه يكم فهوع إلى السّقيفة وارتمى على الدّكّانة منهار القوى منهدّ الأعصاب.

«... ليكن ما يكون ... يجب أن يعرف الحقيقة ... وإلاّ سلط التهمة على الأبرياء المساكين!.. ولأكن أنا الضّحية إذا أراد ذلك ...»

وسمع أنين والده وزحيره فأرهف السمع. لكنّه لم يسمع إلاّ إطباق باب الغرفة فنهض من ضجعته وقضقضت عظامه، وهو يتكلّف القيام. ثم أحسّ بقشعريرة ترمي بدنه وبخائل حمّى وصداع شديد، فذهب إلى غرفة نومه حيث وجد أمّه وزوجته كابيتين كأنّهما في مأتم. ودون أن يستأذن من أمّه ألقى بنفسه فوق الفراش. وطلب شربة ماء فارتاعت أمه. وأقبلت عليه ملتاعة مرتجفة. وازدادت هلعا لمّا لمست جبينه فوجدته ساخنا كالملّة، عالي النبض، فصاحت في كنّتها:

«ووه على ولـــدي!.. ووه!.. محبـــوبـــة!.. سخّني الماء... غـــلّــــي القَـــرع... نـــاد الحجّـــام!.. اسم الله العظيم... امشي إلى خـــالتك خديجة... أحّ بَيْني عليك، يا إبراهيم.. الله يهلك أولاد الحرام...»

وقضى يـــومـــه بين التكميـــد والتـــدليك، والتعـــاويـــذ والاحتجـام، وابتهـال الـزّائرين ودعـاء العـائدات. ولم يغـادر فراشـه إلاّ صباح اليوم الرّابع. وفي عصر اليوم نفسه ذهب إلى عبد الله في المتجر. فلمـّا رآه عبد الله تهلّل وجهه وبادره بقوله:

ـ حصَل خير، يا أبـراهيم... هـذا ولا أكثر. أنـا زرتك في اليـوم الأوّل وكنـت في غيبـوبـة الحمّى... على كـل حـال المال مخلوف. والجبر على الله.

فلم ينبس إبـراهيم ببنت شفـة. وظلّ واقفـا صامتـا إلى أن خرج آخر زبون من الدّكّان، فـدنا من عبد الله وقال له بصوت خافت:

ـ شخصان فقط يعرفان مـا سأقوله لك، فلتكن أنت الرابع بعد الله!.. أنا الذي أشعـل النار في حانوت والدي، أو أحد العائب كما تقولون... لقد لقّنته درسا لن ينساه طول حياته.

وسكت لحظة . ثم اقترب من عبد الله يكاد يلصق فمه بأذنه وهمس له :

- سرّ جمعية إنقاذ الشباب يجب أن يبقى مكتوما إلى الأبد .

ولم يستطع عبد الله أن يمسك عواطفه فاحتضنه وقبّله بحرارة وقوّة .

امتدّت ظلال الجُدران إلى المشرق ذراعين أوْ أكثر وهبّ النّسيم الشرقي رطبا نديّا يحمل رائحة الضّريع ونكهة البحر. واستطاب عبد الله الظل الوارف والنّسيم العليل فاتّكأ على البردعة الموجودة في ظل الجِدار، وأسلم نفسه إلى نشوة لذيذة حبيبة، نشوة الفوز والانتصار.

لأوّل مرّة تذوّق الفوز في معركة خاضها لا من أجل ذاته، وإنّما من أجل الآخرين. لقد بلغ عدد المنضوين تحت لواء جمعية إنقاذ الشباب خمسة وعشرين شابا. وابتدأ الكهول المدمنون على التكروري يتحرّجُون من تعاطيه جهارا. حتى أحمد الحنّاشي وحميدة الساسي أقلعا عن تعاطيه في الدّكاكين والمقهى.

القصيدة التي ألّفتها «أمّ العزّ» بلغت الذروة في الرّواج والانتشار بعد أن تلقّنها أعضاء الجمعيّة وتناقلُوها وأذاعوها،

وهـزجت بها صبـايا القـريـة كُلَّما طاب لهنَّ السَّمـر، أو دعـاهنَّ داعي الطَّرب والغِناء.

لم يـدْرِ كم مضى عليه من وقت، وهـو سابح في النشـوة من الذكريات والأحلام؟ فلمّا أقبلت أمُّـه انطلقت به إلى جوّ آخر من الحديث كان فيه أكثر حيويّة، وأكثر انفعالا وهزّة.

كانت أمُّه تتحلّى بأفخـر لباسها: أحرام حـرير بديع النسج، زاهي الألوان؛ حزام أبيض يتدلّى مـن حقوها الأيمن يكاد يصل كعبهـا، ينتهي بجمـوعـة من النـوّار الأبيض كخجلـة كبيرة من الياسمين المفتح، عجـار قرمزي اللّـون، تنوّع نـوّارة من الصّوف المصبوغ فبـدا عقْدا من الزهـر والورد تطرّز بـه العجار، وانتصب فـوق رأسها ومنكبيهـا في مثل قـوس قـزح يزيـد بهجتهـا وينمّي هيبتها.

وتربّعت الأمّ قريبا منه ضاحكة، باشة. وقالت له:

ـ لم تخجلنـا خالتـك اليوم. كـانت حفلـة الختـان في منتهى الذوق والبهجـة. كلّ النسوة لهَجْنَ بـذكرها، ومجّدن طعـامها، وأشدن بكرمها... خذ، ياعزيزي، نصيبك من مأدبة خالتك.

وقـدّمت لـه مثرد كسكسي زُيِّن بـاللّحم والبيض والـزبيب، فتناول عبـدالله المثـرد وقرّبه منـه، وشرع يأكل. وقبل أن يمسك

باللّحمة الكبيرة التي أمامه، استأنفت أمّه حديثها قائلة:

ـ جاءت إلى الحفلة فاطمة بنت الحاج البشير... اللّه!... ماشاء اللّه!... زين، أخلاق، حشمة... يا سعد من تكون نصيبه».

وسكتت تنتظر منه أن يعقّب على كلامها. إلاّ أنّه ظلّ صامتا، يلوك مضغة اللّحم كأنّه لم يسمع شيئا ممّا حدّثته به. ولم يعجبها موقفه السلبي من حديثها، فقالت تسأله:

ـ وهذه! ما رأيك فيها؟

ـ.... ...

ـ احترت معك يا ضنوتي... اللّه يهديك للخير... إلى متى وأنت عزوف عن الزّواج؟ كلّ أقرانك ستر الله حالهم، وملكوا نصف دينهم إلاّ أنت...

ـ.... ...

ـ الحق. لم يبق عندي صبر. أنا أريد أن أبتّ معك اليوم... البنت أعجبتني، ولن تجدَ أحسن منها... لقد أبديتُ رغبتي إلى والدتها ففرحت واستبشرت.

لكنّي غير موافق.

ـ لن تجد أحسن منها في الأنس والجنّ... خَفِ اللّه، يا

ولدي ... يكفيك هذا الدّلال.

ـــ مـا دامت على مـا تصفينهـا بـه من حسن فلن تبـور. سيتهافت عليها الخُطّاب.

ـ أنت الذي ستبور... تقضي شبابك سلاطة ... يهديك، يا ولدي ... اسمع كلامي.

ـ... ...

ـــ قل لي: من أعجبتك من بنـات القـريـة حتى أعجل بخطْبتها؟

ـ... ...

ـ قل. لا تسكت... لا حياء في الدِّين.

ـ قد لا يعجبُك اختياري.

ـ خير الله في الذي تختاره. وأمري إلى الله.

ـ أصحيح ما تقولينه!؟

ـ مادمت مصرًا. فماذا أفعل؟

ـ اخترت عائشة.

ـ عائشة!. . بنت الهرقام ... ما أعجبك منها؟

ـ لا . ليست بنت الهرقام .

ـ ومن غيرها؟ . . لا يوجد سواها بالقرية .

ـ أقصد عائ... عائشة بنت مفتاح الطَّرابلسي .

ـ أتمزح معي ؟ لماذا تلتوي؟ . .

ـ ... ...

ـ لو لم يسبق لي حديث معك لقلت : إنَّك خجلت

ـ أنا جادّ في قولي ، واللّه .

ـ اسم الله عليك ، يا ولدي ! هل تشعر بتعب؟

ـ أبدًا . واللّه العظيم .

ـــ اللُّطـف ! . . اللُّطف ! . . النجـدة يـا صـالحين ! . . يالطيف ... يا حفيظ ... اسم الله عليك ، يا ولدي .

وأجهشت بـالبُكاء اعتقـادًا منهـا أن عبد الله مُسّ في عقله . وأخذت تهتزّ صارخة ، مـولولـة ، فأشار لها عبد الله بـالسكوت والتريُّث ، وقال لها :

ـ اسمعي ، يـا أمِّي . كنت دائما أتجنَّب الحديث معك في هذا الموضـوع . لكنَّك اليـوم أجبرتني على ذلك ... أقـول لك بكلّ

صراحة وصدق: إن قلبي لم يهتزّ لغيرهـا من البنات. وإنّي عازم على طلب يدها.

فجحظت عيناها، واندفعت تقذف كلماتها محمومةً ملتهبةً.

ـ... مقعدة... كسيحـة... عنز جرباء... حـدبة بعير... يا خيبتي... ياعـاري... قل لي إذا حصل لك معهـا شيء... أبوك صديق حميم لشيخ التراب... يطردهـم من هنا، يُقصيهم في يوم وليلة.

وأجابها عبـد الله في شيء من اللّين، ولو أن مـلامح الغضب الصّارخ ماتزال بادية عليه:

ـ اسمعي... كلّ شيء أقبله منك إلاّ هـذا... أقسم باللّـه، بكتابه، ببيتـه الحرام أن شيئا من ذلك لم يقع... يجب أن تفهمي أنّني لا أريـد سوى إنقـاذ تلك المسكينـة وإسعـادها... سـوف أضحّي من أجلهـا بكلّ شيء... كلّ البنـات سيجدن أزواجـا. أمّـا مي فلن تجِدَ سواي... قـولي لأبي... خبّري أهل القريـة... أنا لا أخشى أحدًا. لن أخاف.

وازداد جزع أمّه واشتـدّ بها الهلع والغضـب، فلم يسعها إلاّ أن تلطم خـدودهـا، وتخبّط أفخـاذهـا. وانـدفعت تصيح وتصرخ بصـوت عالٍ حتّى استيقظ أبـوه مفجوعـا من نومـه، وأقبل يجرّ أحرامه، ويصيح:

ـ مابالكم! . . ماذا دهاكم؟ فضيحة !فضيحة!

ـ ماذا دهـانا؟ مصيبة الدّهر ! . . أكبر من الـدّهر... ولدي ولدي فقد عقله... يا ويْلي، يا طُول ليلي...

ـ يكفي... يكفي... قولي ماذا حصل؟

ـ اسأله، إنَّه أمامك.

فقال عبد الله قبل أن يسأله أبُوه:

ـ كل ما تقولـه أمّي فهو صحيح، إلاَّ ما يخص عقلي، فأنا في تمام السلامة والإدراك، والحمد لله... و...

فتلقّفت منه أمه الكلام. وقالت محتدمة:

ـ عاقل! . . مدرك! . . أتعـرف ماذا قال؟... رفض أن يتزوّج بنـات الأخـوال والأعمام... رفض فـاطمـة بنت الحاج البشير! لماذا؟ آه يا ربِّي ! . . إنَّهُ يـرغب في حوريَّة من حُـوريَّات الجنَّة... حورية المعيز والنّعاج . . عائشة بنت مفتاح الطَّرابلسي.

وصعق أبوه، وهو لا يكاد يصدِّق ما يسمع. ثم نظر إلى عبد الله نظرة استغراب وقال:

ـ احترت، واللّه! أنـا لا أدري مَن الـذي خـرج منه عقلُـه، أنت أو أمُّك.

فقال له عبد الله :

ـ لاهي . ولا أنا . هي تُعبِّر عمّا تشعر . وأنا قلت ما آمنت به .

ـ أجازم أنت بما تقول؟

ـ كلّ الجزم ، يا بابا . واسمح لي إذا وقفت منك هذا الموقف .

وتدخَّلت أمه :

ـ هل سمعت؟ . . هل بقي عنده عقل؟

ـ قومي أنتِ ، يا بنت الناس . خلّيني معه .

ـ أقوم ! لا . والله . ولو أطبقت السماء على الأرض .

ـ أمري إلى الله . . ولاحول ولا قوة إلاّ بالله ... هل تعرف هذه البنت ، يا ولد؟

ـ أعرف ما تستهجنونه منها . لكن الذي أنكره هو أن تظنوا بها ظنَّ السوء . فهي براء من كل ذلك .

ـ ما أعجبك منها إذن؟

ـ أعجبني أو لم يعجبني . هذا شيء تافه في نظري . أن أخاطبك ، يا أبي كإنسان ، لقد أشفقت على هذه الضّحيّة أن تقضي حياتها في الشّقاء والهمّ ... أردت إنقاذها ، وإدخال

السَّعادة عليهـا... غيرها من النِّساء سيجـدن الرّجـال . أمّا هي فستبقى منبوذة مغبونة .

ـ كـلام جميل ، وقصـد نبيل . لكن لـو عملت فكـرك لغيَّرت رأيك . أنت ضحيَّة عاطفة هوجاء فيما يبدو.

ـ العكس هـو الصَّحيح . عقلي هو الـذي قادني . ولـو قادتني العاطفة لنفرت منها ، وما فكَّرتُ فيها .

ـ خرافة لا يصدِّقها النَّاس .

ـ مادامت مرتاح الضَّمير فما عليَّ .

وتدخَّلت أمّه مرَّة أخرى :

ـ راحة المجنون من عقله ! . .

فنهرها زوجها قائلا :

ـ اخرسي أنت ... لا تزيدي الحريق التهابًا .

وسـادت فترة صمت كـانـت فيهـا الامّ تئنّ وتتلـوّى كـالمعود . وكـان فيهـا الأب يدور حـول نفسـه يكاد يتميَّـز من الغيظ . وكان فيها عبد الله مطرق الـرأس لا يتحرّك كأنَّه منحوت من حجـر . وضـاقت الأمّ بهذا الصمت القـاتـل . وخـافت أن ينتهي النقـاش إلى هـذا الحدّ ؛ فنظرت إلى زوجهـا تستحثـه بشرر

عينيها . وقطع الزوج هذا الصمت ، وقال لابنه :

اسمع ، يا عبد الله . لنفرض أنَّك تزوجت هذه المرأة . . هل تعتقد أنك ستنال معها الرّاحة والهناء؟! لا... أبدا... من سيدبِّر شؤونها قبل شؤونك؟ ... هل ستأتي لها بالخدم أم بالضرائر؟ . . إنّها كسيحة ، مقعدة... تحبو على الأرض... تكنس القاعة بصدرها ... تجرّ التراب ببطنها ... تزحف... افتح عينيك جيّدا ، وابتعد عن هذا المأزق يصلح الله حالك .

ـ قلتُ لكم : إنّني أعرف كلّ ما تستهجنونه منها . أنا فكّرتُ طويلا في الامر.

ـ الشرع لا يسمح لك بذلك . إنّها ليست كفؤا لك .

ـ أنا رشيد أعرف كيف أتصرف ... موقفكم هذا هو الذي سيزيل عنّي رشدي ، سيدفعني إلى الهاوية ...

ـ إنّك ستخرّب بيتنا . وتدوس شرفنا !

ـ هذا في نظركم . أمّا في نظري أنا . . في نظر الرحمة ... في نظر الإنسانية ، فلا .

فصاحت أمه في وجهه :

ـ لبني عليك حرام ، يا عاصيَ الوالدين !

ـ حرمي ما شئت: اللّبن... الحياة... الأمومة. لكن الحساب أمام الله ربّ العالمين.

وانتصبت أمُّه واقفة، جاحظة العينين. والتفتت إلى زوجها تقول له:

ـ أسمعت كلامَ هذا العاصي؟ لا يفيد معه شيء... أمّا أنا فيشهد علي الله والملائكة والنّاس أجمعون أنه لا يجمعني مع هذه الكسيحة منزل، ولا يظلني معها سقف، ولا يضمُّني وإياها قبر.

ثمّ التفت إلى عبد الله تنذره بحركات يديها وتقول له:

ـ وأنت!.. ياعاصي والديك... يا ضنوة النّحس... اللّه يهلك أصحاب الشرّ وبنات السوء... لا تفتح فَمَكَ باسمي بعد اليوم.

وعقّب زوجها في لهجة مشحونة بالأسى والحرقة:

ـ الصبر، يارب!.. لا حول ولا قوة إلاّ باللّه...

***

نقاش عقيم مع الوالد والوالدة، شُمود قاتل، غيبوبةٌ تمرّة، شعور بما يجري حوله كشعور الحالم النعسان... ماذا

يـذكر؟ . . مـاذا يفهم؟ . . إنـه لا يكـاد يذكـر شيئـا ، ولا يفهم شيئـا . إنَّـــه حــالم في يقظـــة ، يسبح في عــالمه بعيـــدا عن الآخرين . . اعتزل الناس ... عزف عن الطعام والشّراب ... زهد في الحياة . فنحل جسمه ، وغارت عيناه ، وأشرف على الهوّة .

وجلس الوالـد المغتم يفكّر في مـآل ابنه عبـد الله الذي يهدّده الموت في كلّ لحظة . وقال في نفسه :

« ... سترضى أمـه في يوم آت لا ريـب فيه ... إن حنينهـا إلى عبد الله سيعود بها حتما إليـه ... الوالد أشدّ حنـانا من المولود ... لكن مصيبتي في عبـد الله ! إمّـا أن أقبلـه مـوجـودا في البيت مع كسيحته المقعدة ، وإمّا أن أرفضه مدفونا في المقبرة ... »

وتعاورته سياط الألم واليأس ، ومقارع الإحجام والإقدام بحثا عن أخف الضّررين ، وسعيا في الحفاظ على فلـذة كبده وخليفته في الحياة . وأقنعته وطأة التفكير وشدّة المحنـة أن ولده لم يجلب له عارا . وإنّما جلب لـه مشكلة . ولكن هل يصدّق النـاس أن ابنه استولى عليه حب الخير والميل إلى الفضيلة؟

واستجاب الوالد المغتم ، فذهب إلى مفتاح الطرابلسي يطلب يد ابنته إلى ابنه عبد الله .

كيف تمّ الأمـر بعـد ذلك؟ متـى وقع بـالضبط؟ عبـد الله لا

يذكر من ذلك شيئا. إنّه ما يزال في غيبوبته، في أحلام عالمه المسحور، وضباب دنياه التائهة.

واهتزّ - ذات حين ـ عندما وجد نفسه محاطا بإخوانه أعضاء جمعيّة إنقاذ الشّباب، وقد التفّوا من حوله يزينونه ويلبسونه لباس الزّفاف.

انطلقت الزغاريد، وعلا الضجيج بالشوارع، وتتالت طلقات البنادق والقرابيلات، فصعد عبد الله مع رفقائه فوق سطح المنزل المجتمعين فيه ليشاهدوا موكب الجحفة يخترق الشّوارع والسّاحات.

جحفة مزركشة زاهية الألوان يحملها جمل يتهادى مختالا تتقدّمه زنجيتان تحملان مجامر البخور وتتفنّنان في ضروب الغناء والزّغردة. جموع حاشدة من الرّجال والنّساء والاطفال تقف على جنبات الطريق بينما مهرةُ الفُرسان يقومون بألعاب فروسيّة غريبة. هذا فارس ينتصب على رأسه فوق السرج، والحصان في أقصى سرعته وأعنف جريه. وهذا فارس يتزحلق عن ظهر فرسه ويميل إلى الأرض ليلتقط منديلا بكلتا يديه. ثم يعود إلى مكانه من ظهر الفرس. وفارس ثالث يتفنّن في لعبه بالقربيلا يلقيها في الجوّ وتتلقّفها يمينه بمهارة عجيبة. وتتعالى صيحات الإعجاب والإكبار، ويتصاعد هتاف الجماهير ليمتزج بزغردات

النّساء وطلقات البنادق. وعندما أوشكت الشمس على المغيب انتهت الألعاب فجنحت الجحفة متهادية إلى دار العرس. وأنيخ الجمل أمام باب المنزل، وأنزلت العروس بين التهاليل والزّغاريد. ثمّ زُفّت إلى غرفتها في ظُلّة من البخور وضجّة من التبريك والتصلية.

وإثر صلاة العشاء جاء دور عبد الله (العريس) فأحاط به الإخوان والرفقاء مخترقين به الشّوارع خطوةً خطوةً بين الأهازيج والأناشيد ليزفوه إلى شريكة حياتِه. وكانت ملامح وجْهِه ـ التي كشف عنها ضوء «الفنار» والشُّموع ـ تبدو متجهّمة، تنبىء عن شرود وحيرة. ولاح له وجه أمّه التي هجرت زفافه فأحسّ كأن خنجرا يقطع أوصاله ويمزّق نياط قلبه، فتداعت قواه، وهو يتقدّم من باب الغرفة متهالكا متعبا، فكاد يعود القهقري لو لا همسة في أذنه من صديقه محمود شجّعته على اجتياز الغرفة حيث يلقى عائشة في انتظاره.

« ... إلى متى وأنت في الحرمـــان والمقت؟ . . في خليـط من اللّـذة والحرقـة، وتناقض بين الشقـاء والسعـادة؟ . . كم مضى على غيـاب أمّك دون أن تـراهـا؟ . . كم مضى على زواجك من عـائشــة؟ . . لا شيء تـذكــره... الأيـام قصيرة، سريعــة... والشُّهور في حســاب الدّقـائق والثواني... كـان عزمُهـا أشدّ من عــزيمتك، وكـــان هجــرانها أقــوى من حبِّك ومن إيمانك بالانتصار في النِّهاية... »

الفـراغ الذي تـركتـه أمُّه آلمه شـديـد الإيلام. كـان يأمل أنّها سترضى عنه في يـوم من الأيّام. ولكن الأيّام تطـول وتطول، فلم يـزدها ذلك إلاّ إصرارا وعنـادا. لقد حـاول كسب رضاهـا فلم ترض. وبعـث إليها بالشفعاء فلم تقبل. بل تمادى بها الانفعال والغضب حتى تـدهـورت صحّتها، وخيف عليهـا أن تصـاب بالشّلل أو الموت.

وعندما دخل عليه عبد الرزاق ابن عمّه في الدّكّان كان عبد الله على حالة يرثى لها من الشفاء بعد أن أصبح يشعر بمرارة الحياة وكراهيّة الوجود. كان في تلك اللّحظة يحسّ كأن إبرا حادة انغرزت في عينيه فضغط فكيه بقوّة، وحرق أسنانَهُ، واحمرّت عيناه من سورة الغيظ والغضب، فلم ينتبه لدخُول ابن عمّه ولم يلتفت إليه. بل تمادى في بحرانه وسموده لولا لا أن ابن عمّه قال له:

ـ عائشة بالحسّ... لقد جاءها المخاض منذ حين!

صُعقَ عبد الله للمفاجأة فاهتزّ وأرتجَ عليه. ثم رَمَى بالمفتاح إلى ابن عمّه وأسرع إلى المنزل. وسمع وهو في مدخل السقيفة، صراخ عائشة من آلام الوضع، فأنّ معها، وأحس كأنَّ قلبه يعصر بين صخرتين. وهمّ باقتحام الغرفة لولا أنّها كانت ممنوعة عنه بوجود النِّساء اللاَّتي أقبلن مسرعات ليحضرن نفاس عائشة.

كان يودّ أن يدخل عليها الغرفة، أن يمسك برأسها، أن يساعدها على الولادة، إنّه لو كان بجانبها لكان أكثر راحة واحتمالا، وأقوى صبرا وشجاعة، ولأمكنه أن يبعث فيها القوّة والجَلَد.

وضاقت به ساحة الحوش فلم يجد مكانا يستقرّ فيه. خرج إلى الشّارع. ثم عاد. ذرع الحوش مرّات ومرّات. كان يصيح كلّما صاحت، ويَئنّ كلّما أنّتْ، ويزحر كلّما زحرت.

واشتدّ صياح عائشة أكثر من ذي قبل. وتتابعت صرخاتها. ثم سكنت فجأة فأسْقِط في يديه، وانقطع نَفَسُهُ. وأطلق سبّابَة يمناه متلفظا بالشّهادة. وقبل أن يعيد «الشهادة» مرّة ثانية انبعثت زغرودة من داخل الغرفة خرجت على إثرها أخته فاطمة تناديه صائحة:

ـ عبد الله! عبد الله! ولد... ولد... امتدّتْ رجلاها... انطلقت... استقامت... صحيح والله صحيح!

وارتمت بين أحضانه تشبعُه لثما وتقبيلا. وحاول أن يبعدها عنه فلم يستطع. إنّه لم يفهم ما قالته. التبس عليه الأمر واحتار، فضغط عليها بقوّة حتى أسكتها، وقال لها:

ـ ماذا تقولين؟ امتدّتْ رجلاها... ماتت... مالها! انتهت؟... قولي... قولي.

ـ بعيد الشرّ يا أخي، إنّها حيّة. انطلقت رجلاها بعد الولادة... زال عنها الشّلل بعد أن وضعت الطفل... أخبرتني القابلة... رأيت ذلك بعيني... خش... ادخل ترَ.

وفهم عبد الله ما عنته أخته، فأقبل بدوره يُقبّلها ثم تركها، وهو يقول

ـــ لا... لا... قبل أن أرى الطفل، وقبل أن أرى عائشة سأذهب إلى أمّي... سأخبرها... سأقول لها: إنَّ عائشة انطلقت رجلاها... لم تبقَ عنزا جرباء... ستمشي على قدميها... ستكون مثل النِّساء الأخريات.

وخرج يجري، وهو يهذي كالمعتوه «... وَقَفَتْ... وقَفَتْ... » وتخيَّل سرور أمه عندما يزف إليها البُشْرى، وكيف أنها ستفرح، وترضى عنه، وتعود إلى المنزل، فامتلأت عيناه بدموع الفرح حتى تعسَّرت عليه الرؤية واختلطت أمامه معالم الطَّريق، فارتطم بصخرة، وسقط على الأرض مغشيا عليه.



منتدى مكتبة الأسكندرية